



مع خاله حيان بن الحسن الكرمي أ.ي. عليه السلام
ناصر بن سعيد الشريف وأرجو أن يجمع
أخلاقه الخوية الكثيرة أبو عبد الله

١٤٢٨/٣

www.ALMKatabah.com
أبو عبد الله الظاهري

تباريح التباريح

[سيرة ذاتية ، ومذكرات ،
وهجري ذات]

ضَفَّرَ مَرَاثِهَا

أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

عفا الله عنه

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

أبو عبد الله محمد بن
www.ALMLKTabah.com

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ

فصح وزارة الاعلام رقم ٣٩٦٤ م وتاريخ ١٤١٢/٦/١ هـ

دار الصحوة للنشر والتوزيع

ص.ب ٦٠٣٦٩ - الرياض ١١٥٤٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

في مقاييس اللغة لابن فارس: أن الباء والراء والحاء أصلان: أحدهما الانكشاف، وثانيهما الشدة.

فمن الأوف انكشاف شيء عن شيء فيكون براحاً منكشفاً.
واستعمل كثيراً في الزائل نفسه فقليل البارحة لليلة زالت، وقيل في الأمثال: كبارح الأروى قليلاً ما يرى.

ومن الثاني تباريحي هذه، وهي مشتقة من المعنى الأول لأن المعنى الثاني - وهو الشدة - ناتج عن زوال وانكشاف متكرر فكان فيه معنى التعب والعجب.

يقولون في العجب: بَرَحَ لي: إذا تعجبت له.

ومن التعب الهموم يسمونها بنات برح.

وأجل من ربط بين الأصلين لإظهار معنى الاشتقاق الراغب في المفردات لما عرّف البراح بالمكان المتسع الظاهر الذي لا بناء فيه عطف بقوله: «برح الخفاء: ظهر، كأنه حصل برح.

وبرح ذهب في البراح، ومنه البارح.

ولما تصور من البارح معنى التشاؤم اشتق منه التبريح والتباريح». ا. هـ.

ولست الآن في مقام التصحيحات اللغوية، وإنما بالمناسبة أذكر باستعمالات سُلكت في سمط الأضداد كقول بعضهم: إن الطرب للحزن والفرح معاً.

ولي تأصيل لا أحيد عنه جرئت عليه في تفسير التفاسير وفي مباحثي اللغوية، وهو أنه ليس في الحقيقة والأصل والمواضعة أضداد ولا مترادفات. وإنما يتسع الاستعمال - بعد الحقيقة اللغوية - فيكون الترادف والضدية تجوزاً أو اصطلاحاً فثوباً.

والطرب يُنظر إليه من عموم الانفعال فيشمل الفرح والحزن معاً لأنها انفعاليان.

ويُنظر إليه بخصوص العرف فيكون خاصاً بالفرح.

وهكذا تباريحي يُنظر إليها بمعهود العرف اللغوي فتكون دالة على ما يثير الهموم.

قال ابن فارس في المقاييس: التباريح: الكلفة والمشقة. ا. هـ.

وأنظر إليها بمعهود عموم الانفعال وبعموم المعنى الجامع لمادة الباء والراء والحاء، فتكون تباريحي أحياناً سلوة وراحة وجبوراً.

ولقد اجتهدت في التباريح أن أسجل ذكرياتي بأمانة إلا ما لا يحل الجهر به، لأن الله لا يحب الجهر بالسوء، ولأن اعترافات النصارى ليست من ديننا.

ودعك من جورج صاند وما في مستوى ذلك من الفحش.

ومهما حككت أحداث حياتي، ونَحَضْتُ عبرها: فلن تغطيني أفيائها وظلالها على نحو ما فعلت سير ويوميات ومذكرات وذكريات وأوراق السامقين ذوي المغامرات الأدبية والفنية وذوي الأحداث التاريخية.

ومن أنا؟! ... من أنا حتى تكون لي أيام كأيام طه حسين، أو كمذكرات تشرشل قائد العطب العالمي، أو كيوميّات خريّت الجزيرة وعلامتها وأستاذ جيلها حمد الجاسر؟! .

وما كنت خريّناً قط!! .

ولهذا فلا تعني التسمية بتباريح التباريح أن كل تباريح دون تباريح كما توهم بعض الأحباب أن تسميتي تفسيري تفسير التفسير تعني الادعاء بأن كل تفسير دون تفسيري، وإنما أردت تفسير غوامض من التفسير كبعض الحواشي على الزمخشري والبيضاوي، فمعنى ذلك أنني أفسر بتفسيري بعض تفاسير غيري .

وتباريح التباريح هاهنا انتقاء واختيار من تباريح التي نشرتها بالمجلة العربية وبعض الصحف والمجلات، فالعنوان بمعنى صفوة الصفوة .

وأنوي بحول الله تقديم تباريح كاملة بعد تقصي تدوينها .

وإذا صدرت الترجمة الذاتية عن كاتب مسلم فهو مؤتمن فيما يعلنه من ترجمته أو يضمّره .

ومعنى ذلك أنه صادق في الأصل حتى يقوم الدليل على كذبه .

والترجمة الذاتية فن من فنون السيرة لا يميزها في الاصطلاح الأدبي مجرد أنها ذاتية وليست غريبة . . بل لها عناصر تكوّن مفهوماً أدبياً، وهي مزيج من المذكرات واليوميات والسيرة والرواية الأدبية . . الخ .

فكاتب الترجمة الذاتية صاحب مذكرات، ولكن مذكراته تسجل الأحداث المكوّنة لسيرته وبيئته .

وهو كاتب ذكريات، ولكن ذكرياته عدسة مصور تلتقط الأضواء والأصباغ والظلال لعصره ومصره بحيث تجلو ذاته .

إنها بالمناسبة أذكر
: إن الطرب للحزن

لتفسير وفي مباحثي
صداد ولا مترادفات .

ون الترادف والضدية

روح والحزن معاً لأنها

ي فتكون دالة على ما

المشقة . ا . هـ .

معنى الجامع لمادة الباء
حوراً .

بأمانة إلا ما لا يحل
رافات النصارى ليست

الفحش .

ها : فلن تغطيني أفيأوها
كرات وذكريات وأوراق
حداث التاريخية .

وليس من الشرط أن يكون روائياً، ولكنه قد يُضْمَن روايات - على مذهب الواقعية الأدبية - حينما يجد أن الصدق يحتاج إلى تقريب أو تغليف. ويشترط الدكتور يحيى إبراهيم عبدالدائم في كتابه الفحل «الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث» أن لا يكون كاتب يوميات تكون الأحداث فيها غير مرتبة.

قال أبو عبدالرحمن: كاتب الترجمة الذاتية كاتب يوميات إن شاء ما ظلت اليوميات تبلور ذاته وما إليها.

وهو قد يئوب سيرته إلى مواضيع فلا يستأسر للترتيب الزمني، وقد يريد الأهم يقدمه على المهم من نواحي سيرته، فبأي حق نقيده بالتسلسل الزمني؟.

وهو كاتب اعترافات، واشترط الدكتور يحيى أن لا يخرج على نهج الاعتراف الصحيح.

قال أبو عبدالرحمن: الاعتراف إقرار، ويكون هذا الإقرار إذا صح واقعاً صحيحاً وإن كان مؤذياً.

أما مبالغات الجبناء في الاعتراف بمغامرات في ذي الشطار فتكون كذباً لا تُرَدُّ لأنها اعتراف برذيلة، بل لأنها اعتراف بغير واقعي.

والاعترافات لها تيارات في الشرق والغرب: تيار عند الشرقيين كله فاضل لأن سير أهليه فاضلة كحديث ابن تيمية عن نفسه وصراعه العلمي.

وقد تكون اعترافات لا تتعدى اللمم وعمّا قبل الحلم كما في طوق الحمامة لابن حزم.

وفي نصاب ذلك اعترافات الصوفية والزهاد في حكايتهم لتجارهم عن فيوضات إلهية.

وتيار عند الغربيين يجهر بالسوء، ويتبجح بالفضائح ويحكي ما يندى له الجبين.

وأقبح وأحدث ما قرأته من اعترافاتهم اعتراف برتراند رسل في سيرته الذاتية بأنه كان يقلب وجهات النظر مع خادمه، وذلك كناية عن تبادل عمل قبيح.

والترجمة الذاتية للرجل العادي الخامل والزعيم التاريخي سيان في نصاب الأدب، فإذا تجردت الترجمة عن شرطها الأدبي فسيرة الزعيم التاريخي وغير العادي هي المطلوبة تاريخياً، وسيرة الرجل العادي الخامل لا تكاد ترمق.

ويفترض في كاتب السيرة الذاتية أن ينقل الحقيقة عن حياته، والواقع الذاتي لنفسه وبيئته من خلال الأحداث الخارجية.

ويفترض فيه أن يكون فناً بطبعه يصوغ روائياً كل انفعالاته وتجاربه.

وعندما يقول فيكتور هوجو: «عندما أحدثك عن نفسي أحدثك عن نفسك»^(١) فليس معنى ذلك افتراض المحال من اتحاد الظروف والأحداث لكل الكتاب وكل القراء، وإنما معنى ذلك الحرص على الصدق بحيث يعيش القارئ مواقف الكاتب، لأنه من الممكن أن يعانيتها.

إلا أن هذا المطلب النبيل عسير جداً قد يكون متعذراً - وذلك أكثر من متعسر - عند الشرقي المسلم الذي أوصاه ربه بالستر على نفسه إذا ضعف، وأن يطلب الستر من ربه في حياته ويوم يقوم الأشهاد.

(١) الترجمة الذاتية ص ٢٨ عن مقالة الحي اللاتيني لعبدالله عبدالدائم بمجلة الآداب البيروتية، عدد ٥ مايو، سنة ١٩٥٤م.

وأوصاه ربه بأن لا يتماجد ويتباهي بهاله من نبل إلا أن يكون ذلك من باب ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ ، ونهاه أن يطلب المدح بهالم يفعل .

قال أبو عبد الرحمن : وإذن فالصدق الواقعي الخلقي - لا الصدق الفني الأدبي الذي يعنيه نقاد الشعر - مطلب ضروري لجوهري لكاتب الترجمة الذاتية .

وفي العوائق عن قول الحقيقة ما يعتبر عذراً لا غبار عليه شرعاً ومنطقاً . وإذن ننفذ إلى الصدق النبيل في الكشف عن الحقيقة المرغوبة على أنقاض الكذب غير النبيل في دعوى وقائع غير صحيحة ، فأول ما نفحص من الأنقاض أن أي كاتب بين نازعين :

أحدهما : نازع التواضع وإخفاء الذات لتقوى دينية أو رياضة صوفية أو فلسفية .

وهذا النازع سالب يخفي كثيراً من المناقب ، وربما كان إيجابياً ضاراً حيث يتظاهر الكاتب بمعاييب غير فاضحة وغير واقعية لتزهد ذاته .

وكثير من مظاهر إخفاء الذات يراد به زيادة في تبجيلها ، وكم من مبالغ في التواضع يريد مزيداً من التعظيم ! .

قال أبو عبد الرحمن : الصدق حبيب الله ، فلا يزيّف على نفسه ما يهينها لأن هذا كذب ، ولأن النهي عن تزكية النفس لا يعني الأمر بفضحها وتزييف النقائص عليها .

أما سكوته عن كثير من الفضائل فلا يوصف بالكذب .

ومن تغلب عليه هذا النازع يخشى عليه أن يفضح نفسه بما ستره الله عليه من معاييب مع أن صدقه في هذا الجانب غير مطلوب ولا مرغوب ، وليس من المطلوب منه أن يدعي عكس الواقع فيمدح بما لم يفعل ، إنما

المطلوب الصمت والستر.

والنازع الثاني: نازع النرجسية وتفخيم الذات والعجب بها، ولهذا
النازع ضرران على الترجمة الذاتية:

أحدهما: سلبي بحيث يسكت عن لحظات الضعف في سيرته إذا كان
ذلك الضعف غير محظور التصريح به شرعاً.

وثانيهما: إيجابي ضار وهو تمويه السيرة بأعجاب غير واقعية.

وقد يقال: إن الجانب السلبي كذب لأنه إخفاء لشيء بمقابل إظهار
لشيء آخر، والأصل أن الكاتب يدلي بكل شيء عن نفسه فلا يعذر إلا
بالنسيان الطبيعي، أما الإخفاء المتعمد فكذب.

قال أبو عبد الرحمن: إن صح أنه كذب فهو من الكذب المستثنى، لأن
الله ما أمر عبده بفضح نفسه بسر كل رذيلة، بل أمره بالستر، والستر
إخفاء.

ويبعده أن يكون كذباً أنه لم يقل: أنا لم أفعل كذا.

وإنما سكت إذ ليس من حق أحد أن يسأله عن أمر مستور فيلزمه
بالصدق أو الكذب.

قال أبو عبد الرحمن: ولا يكاد كتاب من كتب الإمام ابن حزم يخلو من
حديث عن النفس: إما سيرة ذاتية وإما مشاهدات وانطباعات مما يسمى
اليوم بالمذكرات واليوميات.

ولا يكاد سفر من أسفار ابن حزم الخطية يخلو من فصل يعلقه الإمام
وهو على منهج المقالات الصحفية اليوم.

فالفصل الذي كتبه عن مناجاة النفس من النثر الفني الفلسفي الرفيع.

وكتابه طوق الحمامة حفيلاً بأحاديث وأخبار الأصحاب والداخلية إضافة إلى السيرة الذاتية.

وتجده في حومة التحقيق العلمي الفقهي يورد ذكرياته عرضاً كنشوب رجل في المقصورة حصره البول لإطالة ابن زرب الخطبة الجمعة، وكان أبو محمد يدعو لإطالة الصلاة وقصر الخطبة اتباعاً للسنة.

وفي مرض الموت المخوف منه يذكر أن شيخه ابن مفلت تزوج وطلق إحياء للسنة ومعارضة للمالكية في الأندلس.

وهكذا تتزاحم ذكريات الإمام ابن حزم، وقد طبعت مجلدين منها بعنوان: نوادر ابن حزم.

ومثله الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل يعتبر كتابه الفنون - الذي بلغ أربع مئة مجلد - جمهوره من الذكريات، وكان يستيقظ من منامه، أو ينهض من فراشه ليسجل خاطره.

ولابن حزم شعر قاله في المنام فأكملة في اليقظة.

ومداواة النفوس للإمام ابن حزم من المذكرات اليومية، وقد نص فيه على أن كل إنسان يمر به من المشاهدات والخطرات ما هو مصدر معرفي نفيس إلا أن أكثر الناس يغفلون عن تسجيل ذلك أو لا يهتمون به.

قال أبو عبد الرحمن: ومنذ لاحظت هذه البادرة لدى الإمام ابن حزم حرصت على تسجيل ذكرياتي مهما صغرت وتفجير عبرها الكامنة.

تباريح الطموح العلمي :

كان الشيخ صادق صديق (متع الله بالصحة والعافية إن كان حياً، ونور الله ضريحه إن كان ميتاً، وجمع له بينهما) من العلماء الأزهريين الفضلاء، وكان حنفياً أشعرياً، وكان أديباً ذكياً جديلاً.

وكانت تربطني بأساتذتي صلة صداقة حميمة، وكنت أسمع من نجواهم أصداء جدلهم من الشيخ صادق.

ومن هؤلاء العالم المتواضع الجليل محمد بن عبدالرحمن الداود وعبدالرحمن السالم - رحمهما الله وجمعنا بهما في دار كرامته - وأخوه الأكبر شيخنا عبدالله بن عبدالعزيز السالم متعه الله بالصحة والعافية.

وكان الشيخ صادق يعتمد في جدله أسلوب التنزل في الاستدلال فيقول: افرض كذا!.

أو : افرض أنه كذا!.

وقد أصبح هذا الأسلوب لكنه محبة لدى شيخي ابن داود - رحمه الله -.

وكان شيخي صادق معجباً بي غاية الإعجاب إلا أنه إذا أحس من نقاشي ذكاء فيه معنى التحدي للأشياخ والإدلال حسب صلف الشباب فإنه يمطرني بأساليب السخرية والتهكم.

وقد صارحني في آخر سنوات اللقاء به تخوفه من غروري بأوشال الثقافة والذكاء.

ولعله رأى أن الذين عاشوا الكهولة بغرور وغرارة اليفاع هم الهاملون من رجال الحرفة في الصحافة والإعلام والأدب، لأن غرورهم وغرارتهم منعهم من التلمذ على الكتب والمشايخ.

فكان نصيب هؤلاء تحسين العبارة وحذقة الإنشاء وفراغ القلب من ضياء الفكر وزخم العلم والثقافة.

بل رأيت شيخي محمد عبدالوهاب البحيري متعه الله بالصحة والعافية ينعي علي ثقافة الأدباء والصحفيين، ويصف كل ثثرة وفضول بأنها كلام جرائد!!!.

وكنت طالباً بمعهد القضاء العالي، وكان هو من أجل علماء الأزهر وأحفلهم بالخلاصة والصميم والتخوم.

ومرت فترات في مسجد بالشميسي كنت أدرس في الخلوة أو في السطح بصحبة شيخي ابن داوود منهاج السنة لابن تيمية وشرح المتنبي للبرقوقي وزاد المعاد لابن قيم الجوزية.

وكان يحذرنى ظرف الأدباء وهوهم ورقتهم وتأوهاتهم.

ولقنني رحمه الله أن الأدب تسلية على هامش الحياة، إلا أن التسلي به بعد عزائم الأمور خير من التسلية المهلكة.

وغاية الأدب أن يفتق موهبتي وينظم فكري ويحسن عبارتي.

وكانت هذه المرحلة لحظة الانبهار والدهشة والحيرة من حياتي العلمية.

فأنا منذ الصغر مفطور على طبع الأدباء وتلمسهم للجمال وتصيدهم لحبات القلوب!!!.

ثم اصطدمت بزملائي ومشايخي بالمعهد العلمي الذي نجد في كل دقيقة من دقائق دروسه حضوراً لهيبة ورزانة وعلم وجدية الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم رحمه الله وعوض المسلمين بفقده خيراً فقد أعجز الخلف بعده.

وكنت عرفت ابن حزم أديباً فحسب، وعلمت الجانب الرخو من فكره

وهو طوق الحمامة .

وكان مشايخي يطرقون رأسي بسياط أزهرية نُحِرَتْ لجلود الأدباء
والظرفاء!! .

وكان الحديث العادي لشيخي صادق صديق من أفخر الأساليب
الجدلية العلمية!! .

والصغير يتقن المحاكاة بلا ريب .

فاستحكمت عندي من تلك اللحظة عقدة عالم، وكان مدلول عالم
وشرطها هو عقدي التي لم تنحل حتى هذا اليوم .

تباريح القراءة والطلب والتأليف :

بمقدار ما يحفظ طالب العلم من شعر ومتون علمية ينقص حظه من
القراءة .

وهكذا إذا أسهب في الكتابة والتأليف حرم نفسه من الازدياد في
القراءة .

وهكذا إن تفرغ للعمل الإبداعي شعراً وقصة ورواية ومسرحية سيقبل
حظه من القراءة أيضاً .

ولقد حال بيني وبين الحفظ الحرص على عرض القراءة وطولها، إلا أن
من أدمن القراءة المتنوعة تختلط عليه العلوم ويستطرد كثيراً من حيث لا
يدري .

وادخرت ما أقدر عليه من عمل إبداعي لسويغات التجلي والفراغ
لمناجاة النفس ومداعبة العقل والخيال بالتأمل والتخيل فإذا عاودني الحنين
للقراءة عدت أدراجي .

وأما الكتابة للصحافة والتأليف فمشغلة عن الاستزادة في القراءة أيما مشغلة.

ولكنني وطلت نفسي على كثرة الكتابة والتأليف رغم مشقتها على نفسي وأنسي، لأنه ليس من رسالة طالب العلم أن يُثقف نفسه فحسب، بل عليه أن يُنور أبناء أمته بكل ما حققه وحذقه من علم، ولأن كثرة الكتابة تثبت العلم في الذاكرة، ولأن كل كتابة مشروع تطلع جديد يتعهد الكاتب مدى عمره، ولأن رزقي في شفرة قلمي!

وأما حفظ عيون الأدب الخالد التي تثب بالأرواح فمن شرط النديم الظريف المسامر الحديث، وقد آليت على نفسي أن لا أكون نديماً فليس في بقية العمر متسع لتظرف الأدباء وعلى الله العوض فيما سلف منه.

فإذا طربت طرب الأديب وصدئت صنّاجتي استدعيتُ دوواين الظرفاء من الأرفف فيأتيني سعيّاً، وأطرب ما شاء الله، ثم أكون ممن استودع الظرف والترف الفني قرطاساً فضيعة، ولا أبالي فيكفيني أن أكون نديم نفسي.

قال أبو عبد الرحمن: وأهل الأدب والظرف ذوو علم بلا ريب، ولكن لا يبقى لهم منه إلا المسحات الجمالية لأنهم مشغولون بشم الأقاحي، فهم في حياة كالتّي قال عنها أحمد بن محمد ابن يربوع السبتي:

وأنست منه الوعد بالوصل ضله	وقد كان منا قبل ذلك ما كانا
عناقاً ولثماً من ثنايا كأنها	أقاحي الربا غصا من الطل ريانا
ولا عجب أني نسيت عهوده	فشم الأقاحي يورث المرء نسيانا

قال أبو عبد الرحمن: ذلك أنه في عالم ينسيه غيره.

وهؤلاء إذا تجلوا بإبداع فني، وابتسم لهم الحظ لحظة لا يمتعون، لأنه محتوم عليهم حرفة الأدب.

هذا واحد من هؤلاء الظرفاء مدح الأمير فقال:

ضياء الشمس والقمر المنير إذا طلعا كأنهما الأمير
فإن يك أشبهها شيئاً قليلاً فقد أخطأها منه كثير
لأن الشمس تغرب حين تسمي وأن البدر ينقص إذ يسير
ونور محمد أبداً تمام على وضوح المحجة مستنير
فقال الأمين: علي بسفط فيه در فجىء به، فلم يزل يحشوا فاه حتى
صاح: القتل القتل يا أمير المؤمنين.

قال أبو عبدالرحمن: كان الأحق أن يحشي جيبه، أو شملته، أو
يستحدث له خزينة.

وأمتع العلم وأبركه ما اقتني بهال حلال شحيح، وقرىء في أوقات متأزمة
فتبتلع لذة العلم كل أعباء الحر والظلام ونشاز المكان وسعلاة الزوايا.
ويوم كنت في قريتي ولم يكن يعبر الطريق سوى امرأة ملفوفة تحتك
بالجدار أو ماشية من بهيمة الأنعام كنت أتخيل من مظهري صورة للفلاسفة
المشائين!!.

ومن الظاهرات أن لما يقتنصه طالب العلم من الشوارد، ولما يدونه من
الكناشات لذة أيما لذة غير ما تهديه إليه الآن الفهارس الفنية المتنوعة
والطباعة الأنيقة وعلامات الترقيم.

ومن لذات العلم أن تقرأ قائماً فقاعداً فمستلقياً فمكباً.

يذكر ابن حجر عن أحد طلبة العلم أنه كان مكباً على الاشتغال حتى
عرض له وجمع المفاصل بحيث كان الثوب إذا لمس جسمه آله ومع ذلك
معه كتاب ينظر إليه وربما انكب على وجهه وهو يطالع^(١).

(١) الدرر الكامنة، ٣٠٦/١.

وآخر يتقوس ظهره في طلب العلم ويقول بعد الأربعين :
أنار الشيب في فودي ظلاماً وأطفأ من ضيا عيني سراجاً
وذكر السخاوي أن علي بن إبراهيم الأبى كثير النعاس من السهر^(١).
وأدركت مراراً في متدى الأستاذ الرفاعي الأستاذ الدكتور محمد
عبد المنعم خفاجي كان كثير النعاس .
وكان أبو تراب لا ينام سوى سويعات .
وكان صديق لي تكنيه بأبي النور عطر الله ذكره يمشي والنعاس يغشيه
لأنه لا يجد وقتاً للنوم .

فمثل هؤلاء ذوو أعباء ذاقوا بها حلاوة العلم .
ولقد جربت التشنج والصراع مع الزمن في ظواهر علمية عديدة .
منها مشروعات تبدأ بكراريس ، ثم أخطط لها كطلاب الدراسات
العلية ، فأنزل من الأرفف إلى قاع الأرض كتاباً وراء كتاب ، وأتصفح
العديد ، وأجد بغيتي في القليل ولا يتمحض لي من سهر الليالي غير بضع
صفحات مع ما أعانيه من رد الكتب إلى أرففها .
ولهذا بقيت مشاريع علمية عديدة لم تنته بعد إما لأنها في البداية ، وإما
لأنها على مشارف النهاية مع بعد عهد البدء فيها .
وظهرت مشاريع لا تحقق شيئاً من وسوستي العلمية وذلك كل ما صدر
لي مطبوعاً .

قال أبو عبد الرحمن : ولا شيء مما صدر مطبوعاً ، أو كان قيد البحث
والدرس : يحقق لي عزلة العالم التي تكافئ عزلة العابد .

(١) الضوء اللامع ، ١٥٥/٥ .

ومنها ما هو في الظاهر علم، ولكنه في الواقع من متاع الحياة الدنيا ومتعتها، وذلك هو التألقات الفنية والأدبية في الصحافة المحلية. فليست هذه التألقات مما تُستدفع به عزلة العابد.

وقلبت في تقيمي شي من الكتب فوجدت خطوطاً وتأثيرات منذ سنوات عديدة لم أدر ما المراد بها، ولو علقت عليها في حينها كتابة لما ضاع جهدي في قراءات سلفت.

وبعضها إشارات على الأغلفة واضح مقصودها، ولكن التحرير عليها وفق المقصود يقتضي عمراً.

ووجدت أنني أستحضر كثيراً من الفكر والفقه والتعليل والرد والإمام بالمظان.

ولكنني لا أستحضر الدلائل للاستشهاد بها بالنص دون المعنى، وفي مقدمة ذلك كتاب الله، وما تقوم به الحجة من ثابت الأحاديث.

وكل هذا ليس حجة لدعوى عزلة العالم، ولا قدرة على عزلة العابد.

وصح عندي بالبرهان الضروري أن عزلة العابد لم تكن من قدرتي الكوني، وأن عزلة العالم بالصورة التي ألفتها في مقتبل العمر لا ينبغي أن تكون قدرتي الكوني فيما قبيل أرذل العمر، وأنه لا بد من عزلة واختلاط في آن واحد، وأن أعلم بمقدار ما أعمل، وأن أحرص على الخلطة لبث ما علمته، وبالمقدار الذي علمته.

وأن لا يكون في هذا المزيج ما يفوت حقاً من حقوق النفس والأهل والولد.

ورأيت ببصيرة القلب أن هذا التمازج سيحقق العزلتين بأعلى مكاسبهما من عزلة عابد بعيدة عن هوس التصوف، ومن عزلة طالب علم بعيدة عن تلبيس إبليس.

وأول معلم أسعدت بوضوحه أن أغذي ذخيرة الحافظة بما أستأنفه من
قراءة ومتابعة، وليس ذلك من أجل أن أنفق وقتاً أضعاف أضعاف وقد
القراءة والمتابعة للتأليف والترتيب والاستطراد والصياغة الأدبية والعلمية.
وإنما أفعل ذلك لكي أثبت ما في حافظتي محاضرة ومذاكرة ومحادثة
المسجد والمجلس والمذيع.

والقاء ثلاثين سطرًا أسرع وأسهل من كتابة ثلاثة أسطر مع ما في الإلقاء
من حرص على الخلاصة والتخوم، ومع ما في الكتابة من عَرْض
الأديب!

ومن المعالم أن أستأنف للحافظة من العلم المقروء ما يكمل مذكوره
من علم سابق قبل أن أستأنف لها علماً جديداً، لأن العلم كثير والعلم
قصير، وإنما يراد من عمر المجتهد الخلاصة وإن قلت.

وهذا يقضي علي بالتمهل ويتحقق نصيحة المصطفى ﷺ في حكمه بأ:
أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل.

وهذا يشفيني من عُصاب التشنج بين سعة الطموح وقصر الوقت
وضعف الحيلة.

والإحسان أعلى أركان الدين، ولا إحسان بلا تمهل وصبر ورياض
ومداومة.

ولي في معاناة المعرفة - أو إن شئت فسمها الثقافة - عجائب تزعج لداؤ
وأترابي من طلبة العلم، لأنني لا أجدهم يطبقونها ولا يرتاحون لها.
ذلك أنني أنصرف بكليتي إلى فن ما كالأدب أياماً أو أسابيع أو شهوراً
وربما ساعات.

ثم يدركني السأم والملل فأدرج أوراقتي وأعود إلى فن بعيد عنه كل البعد

كالحديث أو الفقه، فإذا عاودني الشوق إلى الأدب ولو بعد شهور وجدت فيشاً وتقميشاً وإشارات ورموزاً وضعتها ثم نسيت مدلولها.

وإنني أجد عناء في ربط مطالعتي اللاحقة بمطالعتي السابقة لطول الفاصل الزمني.

إلا أنني أستأنف القراءة الجديدة بنشاط وحيوية، لأنني قطعتها عن كلام وسأم.

وإذا أردت مهاتفة أصيحابي في إحدى الجرائد فإنما أهاتفهم من فيشي وتقميشي بعد الاعتناء بأسلوب العصر، هذا في الأعم الأغلب.

ويكون الاختيار مصادفة عن فكرة جزئية، إلا أن أصيحابي ربما أحسوا مني تناقضاً، ويتساءلون: أين تقف بهذا الظاهري رجلاه؟!

لأنهم يرونني مرة أكتب عن أنشودة المطر، وأنعي النمط والأنموذج. فكأنني من المبشرين بالحدثة!!

وتارة أتحرش بأصيحابي من الشباب، فأقول يا أهل السجاجات؟!. وأقرع الطبل على طائفي الحدثة ومنظرهم فكأنني من المنغلقيين على «لخولة أطلال»!

قال أبو عبد الرحمن: لا يجوز الحكم بالتناقض والتنافي إلا إذا تخلف الثالث غير المرفوع بشروط يعرفها أهل المنطق كاختلاف الزمان والمكان والحال.

تبايرح العلم والعمل :

ومرت على عقود أو اصل فيها الجلوس على الأرض - أو الجلوس على الكرسي - الساعات الطوال .

فأما حقوق الأهل والولد المعنوية والتربوية فأكد أضييعها .

وأما الحقوق المادية فقد وكلتها لغيري من سائق وشبهه .

ولا أباشر الشراء إلا في الكتب ، ثم كان أخيراً شرائي بالمراسلة والمهاتفة وإن كانت المكتبة داخل الرياض .

وحفت على حقي في النوم والراحة ، والتمتع بلثغة الطفل ولكتته .

حتى الأكل أقوم إلى الوجبة فأكل بسرعة وأقوم بسرعة ، ولا أشعر بمتعة الطعم أو أنني أجدت المضغ .

وبكرت علي الشيخوخة وشكوت أعراضها من الروماتيزم في الظهر والمفاصل التي يسمونها أرياحاً ، ومن عسر الهضم وكثرة الأملاح لانعدام المشي ، وكثرة الزكام «الافلونزا» ، وحساسية الجيوب الأنفية بسبب غبار الكتب وعدم الاستمتاع بنعيم الهواء الطلق في البكور والأصيل .

وولدت عليّ كل ذلك نزقاً وسرعة غضب لأدنى شيء وكنت فيما سلف أحسد نفسي لرحابة صدري .

وسبب هذا النزق أنني ألغيت من حياتي أي برنامج للنزهة والاستجمام إلا دقائق في اليوم واليلة ، ولا يوماً في الأسبوع .

بل ما فضل من طلب العلم فلطلب الرزق ، بل كنت أعمل لطلب الرزق بعد ظهر الجمعة وهو عيد المسلمين .

وكنت أنام إذا عجزت عن مقاومة النوم وأكثر ما يكون ذلك عند حرارة الشمس صباحاً وأحياناً أو اصل إلى الظهر .

وأصحو من النوم دون أن أكتفي .

وما كنت أيام عقود الغفوة أحس بطعم العبادة والمناجاة والتلاوة والعمل ، بل حَسَن لي إبليس بوساوسه هذه الغفلة وأقنعني بأن عملي جهاد ، وأن خلوة طالب العلم في طلب العلم كخلوة العابد في عبادته .

فسولت لي نفسي أنني في عبادة ، وثقلت علي صلاة الجماعة فكانت صلاتي فم بالمسجد لما مع أنها شرط عندنا معشر الظاهريين ، لأن أمر الله بالركوع مع الراكعين يقتضي معيني زمان ومكان .

وهذا هو مذهبهم ولعله يكون لي نظر محرر في هذه المسألة .

فكانت تشب أشغالي قبيل صلاة الجماعة وبعيدها .

وما كان عكوفي في البيت للعلم الشرعي خالصاً ، وإنما كان العلم الشرعي أكثر حرفتي وإن كنت أتعني لمعارف بشرية أخرى من لغة وأدب (وما أحبهما إلى نفسي!) وفلسفة وتاريخ . . . ووو .

وكانت تأخذني لمة الرحمن كثيراً وتلجئني إلى الله وحزبه وترق نفسي شهوراً ، وأهم بمحاسبة نفسي قبيل النوم كل ليلة كما نصح بذلك ابن قيم الجوزية في كتاب الروح ، ولكنني أنسى ، ولا أنفذ .

وأراد الله بي خيراً وقد علم صدق نيتي وله الفضل كثيراً ، ولولا الله ما اهتدينا فرأيت أن استهلاكَ الوقت في هذه الغفلة العلمية من وساوس إبليس التي ذكرها ابن الجوزي في تلبيس إبليس .

ورأيت العلماء على الحقيقة وهم من عبر عنهم ابن حزم في الفصل بأصحاب شاهد الحال كالإمام أحمد بن حنبل يعملون بقدر ما يعلمون ، وأن الله منهم علناً مشهوداً تعرف أماكنهم في رياض المساجد ، كما أن الله منهم إخبائاً لا يراه إلا هو جل جلاله في سويحات من جوف الليل .

وأن مهمة الأئمة العمل لله بتبليغ العلم وتبليغه عملاً وحسبة ومدارسة .
فخرجت من نصايي سيفاً مرهفاً، وشباناً مصلته، وذراعاً جلدأً .
ولقد كسرت دوامة اللهاث إذ أضعت حق صحي فانتعت من كل
المؤذيات والمنبهات التي تحشر طالب العلم في دوامة العمل غير المتبصر
بحيث ينسى المدلول العظيم لتقلب الليل والنهار، ويأما أعظمه وأكرمه من
مدلول في قوله تعالى : ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل
والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً . . .﴾
الآيات .

وكنت بحاجة إلى مشي أكيال يومياً أضعتها رغم كثرة الواعظين من أهل
الطب والتجربة، ورغم ما أعانيه من آلام كثرة الجلوس ولا حجة لي إلا
الشح بضيايع ساعات في المشي !! .

فاستعنت بالله وذرعت بطن الوادي والنخيل يومياً إذا كنت بدارتي في
الجنوب الغربي، وذرعت الوهاد والأكمات إذا كنت في الطرف الشرقي .
وكنت أمشي أكيالاً وأنفق ساعات، ولم يكن ذلك ضياعاً لأنني أتحين
أويقات الغفلة وفتور السابلة، وأستغل وقتاً المشي لاستذكار وتلاوة وتعهد
ما حفظته من كلام الله، أو من كلام المصطفى، أو توثبات الأدب إذا
حننت إلى المذخور من روائع الفن .

وأحياناً يكون للوقت خاصية يفرض علي وأنا أسير دعاء لله ابتهالاً
ومناجاة وتوسلاً واستغفاراً وتسبيحاً وتقديساً .

أذكر سوائف من عمري فتهزني قشعريرة، وأقبض ذقني بيدي لأرى
شعيرات شابت على الإسلام والفطرة ومحبة خالق الكون وبارئ الخلق وما
أشهدته من الطافه فأضرع إليه بأن يرحم شبيبي وضعفي، وأعوذ بقدرته

وأستزيد من إحسانه بأن يهب لي هداية العون والتوفيق كما وهب لي هداية البيان ووضوح الحجة وقيامها.

كما أسأله هذه الهداية دائماً بأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، وأن يريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه، وأن يهديني لما اختلف فيه من الحق، وأسأل معلّم إبراهيم عليه السلام أن يعلمني.

وأرى قمراً ونجوماً ومجرات وأفقاً رحباً وقد حرمت من ذلك عقوداً، ومحضرتني فكر وتأمل وعبرة، فكلما ازددت تفكيراً ازدادت إيماناً ومحبة للخالق وشهوداً لعظمة آياته ووضوحها.

فأي ثانية ضاعت وكل السويغات التي أسيرها تنجح بي طرباً وشوقاً. أستذكر علمي تارة، وأضيف إلى حفظي تارة، وأناجي ربي تارة، وأسبح في كونه سياحة المعتبر تارة.

هذا إلى مكاسب دنيوية لا يحصيها العد، أهمها وفرة نشاط تلازمي بقية يومي ما كنت أعهد لها منذ قبل.

ونفضت أعباء من أشباح الشيخوخة المبكرة كأوجاع المفاصل والظهر والكلى وعسر الهضم والترهل والجشأ والسمنة.

ورأيت شيئاً من التأليف يحتاجه العصر خلال ركام الثقافة والاجتهاد، وذلك هو الاجتهاد البطيء الجاد في عضل المسائل مسألة مسألة، فلا يتعنى للتأليف في باب واسع يكرر فيه ما قد قيل، وإنما يتحين مسألة شائكة اضطربت فيها العقول والنقول وهي من مسائل الاجتهاد فيحررها توثيقاً وفكراً بعد أن يصرف لها ابتسامات وقته وتجليات فراغه.

ويكفي من عمر المجتهد الخلاصة والتخوم.

قال أبو عبد الرحمن: ومع كثرة سياحتي في الصحيحين، والتفسير،

ومقاييس ابن فارس، ومحلى ابن حزم: فقد اصطفت لنشاط الذهن مسائل تكون مفتاحاً لمئات القضايا.

مثل ذلك بديهية المجاز اللغوي، ولكنها أصبحت شائكة لما أنكرها عباقرة ليست اللغة صناعتهم العلمية فحافوا على واقع اللغة بفضل عقولهم، وكانت إزالة الشبهة أعظم حاجة من تقرير أصل المسألة لوضوحها.

ومن ذلك مسائل فكرية يعتبر كتيبى تصورات أولية فهرسة لها.

ومر بي فيما كنت أجمعه من نوادر ابن حزم أن أحد الأندلسيين رأى الشاعر العباسي الحسن بن هانئ طيب الذكر أبا نواس ينظر إليه بعين حولاء في المنام، وأن أحد الفقهاء عبر له رؤياه بأنه سيحصل له من فن أبي نواس بمقدار ما تقدر عليه الرؤية بالعين الواحدة الحولاء، وبمقدار نسبة نظر العين الواحدة الحولاء من عينين سليميتين.

ومر بي فيما قرأته من كتب تعبير الأحلام أن من رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه في المنام يحصل له فقه في الدين.

قال أبو عبد الرحمن: والشرع المطهر يفرق بين الرؤى وبين الأحلام، وأن الحلم من تلاعب الشيطان، وأن الرؤيا حق تكون من الله بشارة ونذارة للمطيع والعاصي على حد سواء، إلا أن رؤيا المطيع أصدق.

وللرؤيا مدلولات ترمز إليها عناصرها كما ترمز أجزاء الكلام إلى المدلول العام، ويفقه رموز الرؤيا عابرون كما يفقه اللغويون والفقهاء والمفسرون الاستنباط من سياق الكلام وأجزائه.

فأذان في المنام يفسر بالحج تارة وبالسرقة تارة.

وقد سمعت من شيخنا عبدالله بن خميس في منزلي بالشميسي منذ

عشرين عاماً أن ابن سيرين أو الحسن البصري نسيتُ تحقيق ذلك كان يأكل ثريداً فجاءته عجوز تقص عليه أن القمر دخل في بنات نعش، فنفض يده من الطعام وأعلن أن العجوز نعتته إلى نفسه ونعتته إلى خواصه، لأنه فسر نفسه بالقمر حيث لم يبق أحد من أقرانه.

وفسر بنات نعش بسبع ليال.

ولم يعيش بعدها غير سبع ليال.

قال أبو عبد الرحمن: وسمعت عن الوالد رحمه الله فيما يرويه عن الشيخ علي بن عبد الله بن عيسى رحمه الله: أن رائيًا قص عليه رؤياه بأنه يطير، فعبّر رؤياه بأنه يكون كذاباً، ولم يكن الرائي كذاباً، وإنما كان ذا دعاية.

قال أبو عبد الرحمن: وقد بينت في مباحثي اللغوية أن الرؤيا ليست خاصة بالمنام وإنما هي اسم من أري الرباعية المتعدية بالهمزة، وأن الرؤية من الفعل الثلاثي رأي، فهذا رأي بنفسه، وذاك أراه غيره.

قال أبو عبد الرحمن: وكنت في بداية الطلب مشدوداً أنا ولداتي وأترابي إلى كتب العقاد وطه حسين وكنت مغرماً بتحليلاته لعبقرية عمر رضي الله عنه.

وكان أقطاب ذلك الجيل يبهرون الأدباء والمثقفين أكثر مما يرضون أو يُقنعون رجال العلم.

ومع انهماكي مع عبقرية عمر رضي الله عنه كنت عظيم الحنين والشوق إلى سيرة الصديق أبي بكر رضي الله عنه.

وإن بعض مواقف رضي الله عنه تهزني طرباً كموقفه من أهل الردة، وموقفه في الإسراء والمعراج وضربه في خاصرة عائشة رضي الله عنها بنته ورسول الله ﷺ نائم واضع رأسه على فخذهما لأن حليها ضاع فتحير الجيش

من أجله ، وخطبته في بني هاشم عند علي وفاطمة رضي الله عنهم حتى
بكى وأبكى ، وتأخره عن أن يؤم برسول الله ﷺ .

وعشرات غير ذلك تحرك الأريحية والخشية ، ولقد رأيت منه رضوان الله
عليه ملامح في المنام منذ سبع سنين^(١) وإنما تدخلت في الرؤيا عناصر من
واقع البيئة فرأيت أنني أصعد إليه من خلال بويت ذي زلف من البويات
المستجدة في سديرة وهي آخر ما عمر من شقراء القديمة ، وأني أراه
بصدرية وغرة وليس ذلك من لباس السلف ، وإنما رأيت وجهاً صبيحاً
وأنفاً أقنى وشعرَ حاجب فاحم واقتحمت إليه الغرفة بين فرح وخشية وشبه
بكاء فإذا بي أسمع صوتاً يقول : ادخل يا ابني ، وكذا هو صوت الشيخ حمد
الجالس ، وإذا بي أراه مائلاً جالساً حاسر الرأس .

وتذكرت رؤيا الأندلسي ، وبحثت في كتب التعبير عما تعني رؤية أبي بكر
الصديق .

فأولت ذلك بأنني سأصيب حظاً لا بأس به من طلب العلم الشرعي
وذلك بفضل الله ثم بما تبارك به ربي من مسحة رؤيا عاجلة للصديق رضي
الله عنه .

وأني سأصيب حظاً كثيراً من علوم التاريخ واللغة والأنساب والوعي
الاجتماعي من خلال الشيخ حمد الجاسر .

وقد لمست هذا باليد وكانت كتبي عن بيوتات العرب أسبق من كتيباتي
ومباحثي الشرعية .

وقد قصصت الرؤيا على عدد من الزملاء ففسروها بذلك .

(١) كتبت هذه التريجة عام ١٤٠٩ هـ تقريباً .

والحمد لله أنني رأيت شيخي حمد الجاسر بعينين سويتين .
وأما عناصر الرؤيا البيئية كالصدرية والغرة ففسرتها بالتناول العصري
للقضايا التراثية .

تباريح العلم والكتب :

لا علم بدون جلب الكتب وقراءتها وإنفاق متع الصحة في سبيلها .
بيد أن جلب الكتب وحده ، ورصفها في الأرفف وحده لا يُظهر علماً .
قال أبو إسحاق إبراهيم النظام وليس ممن يحتج بأمثاله دائماً : « إن
الكتب لا تحيي الموتى ، ولا تحول الأعمى عاقلاً ، ولا البليد ذكياً .
وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول : فالكتب تشحذ ، وتفتق ،
وترهف وتشفي » . ١ هـ .

قال أبو عبد الرحمن : العلم موهبة ، وخبرة ، والموهبة لا تكتسب بالكتب
والقراءة ، وإنما هي فطرة الله وصبغته .

بيد أن مادة الكتب موضوع للموهبة ، لهذا تتمرن الموهبة بالكتب فتجود
اللماحة ويسرع العطاء تحضيراً واستحضاراً .

وبالكتب تتولد المعاني والحجج تولداً يعبر عنه ذوو الصدق من الصوفية
بالفتوح الربانية والمعارف اللدنية .

وكل هذا صحيح ، فكل نعمة بنا فمن الله .

فالشحذ والفتق الأرهاف اللاتي أشار إليهن النظام هن آثار التفاعل بين
الموهبة والخبرة ، بين المحصلات والكتب .

أما كلمة « تشفي » التي ذكرها النظام آخرها فهي مربوط الفرس وبيت
القصيد .

فأي موضوع يبحثه عالم فلا يمل من استنطاق الكتب حوله ما ظل قادراً
على جلبها، ومادام في صحته وفراغه وشبابه عون، ويكون في جلب
المعارف تلميذاً مؤدباً طيعاً أميناً.
فإذا أراد أن يكون أستاذاً يشفي فإنه يرتب محفوظه ترتيباً فكرياً في
لحظات التجلي.

وكم لنفحات العلم من تجليات يظن طالب العلم أنه يسبح فوق
الجاذبية، ولا يدري أنه رهين المحسنيين أو أحدهما.
والإمام ابن حزم رحمه الله يقول في مداواة النفوس: «لذة العالم بعلمه».
ولكن يدعّر لذة العلم أشدّ الذعّر ما ينذر به العلم الحديث من تقنية
مبتدعة.

قال أبو عبد الرحمن: خير لي أن أكون عامياً أميناً على أصل الخلقة عند
الخروج من رحم الأم... خير لي ذلك من أن أفقد طعم العلم ولذته.
وكلما تقدمت إنجازات العلم الحديث وتقنيته قلّت ملوحة العلم وسمح
مذاقه.
لأن الكمبيوتر وما إليه تجعل العلم أرقاماً وجداول وإحصاءات وصوراً
جاهزة.

وأحمد ربّي أنني ذقت طعم العلم فيما استهلكته من سني عمري.
فإن قال قائل: حدثنا عن الوضعية التي يكون فيها للعلم طعم
ولذة؟!.

قلت: لا أحصي ذلك، ولكنني أذكر بعض المظاهر:
فمن ذلك أن يكون الكتاب عزيزاً إما طبعة قديمة نادرة، وإما مخطوطة
لا تجتلب نسختها أو صورتها إلا بشق الأنفس.

فيعيش ط
حصله كان م
ومن ذلك
قوت الرقبة،
وأذكر أنني
وبهامشها مقد
وكان ذلك
القيمة الشرائ
ألف ريال.
ومن الظاه
وليس عنده ك
وأول ما
التجارية خلا
وما كنت
من القرآن اله
ثم تجد ك
الشويعر وتود
وثمة كتب
والسيرة النبوي
ومع هذا
مطبوعة من
لتكسب، ور

فيعيش طالب العلم في شوق إلى الكتاب ما بين تأزم ورجاء، ثم إذا حصله كان مرجعاً فيه!! .

ومن ذلك أن يكون طالب العلم قليل ذات اليد يشتري الكتاب من قوت الرقبة، ويبذل الدين فيه! .

وأذكر أنني اشتريت من حنيشل رحمه الله مدونة الإمام مالك أربعة أجزاء وبها مشها مقدمات ابن رشد بخمسين ريالاً وثلاث مئة ريال .

وكان ذلك يساوي راتب شهرين وأنا طالب بالمعهد العلمي، وكانت القيمة الشرائية لهذا المبلغ تعدل يومها القيمة الشرائية الآن لخمس مئة ريال .

ومن الظاهرات أن لا يكون عنده أدراج منمقة تستوعب آلاف الكتب، وليس عنده كراسي وثيرة، وأنوار جهورية، وغرف مكيفة .

وأول ما جئت إلى الرياض لا أبالغ إذا قلت: إنني أطوف مكتباتها التجارية خلال صحوة، وأكثر تطوافي مشياً على الأقدام .

وما كنت ترى في تلك المكتبات إلا الأدوات القرطاسية وطبعات متعددة من القرآن العظيم أو من أجزاءه الكريمة .

ثم تجد كتباً مغبرة في الأرفف لا يكاد يشتريها إلا العوام كديوان حميدان الشويعر وتودد الجارية وتغربة بني هلال وأشباه ذلك .

وثمة كتب أخرى يقتنيها من يتهججون القراءة مثل رياض الصالحين، والسيرة النبوية، وصحيح البخاري .

ومع هذا كنت أرتادها أحياناً إذ يصادف أن يوجد في إحداها نسخة مطبوعة من كتاب نفيس يبيعها طالب علم بأزيد من قيمتها لحاجة أو لتكسب، وربما فاجأك صاحب المكتبة بأنه منذ أيام كان عنده معروضاً

الكتابُ الفلاني، وأنه باعه منذ ساعات!!.

وكنا نأرز إلى حنيشل رحمه الله في شويرع محمد بن عبد الوهاب المنصب في دخنة.

وكنْتُ أَشْتري منه في الذمة إلى مبلغ محدد ثلاث مئة ريال تارة، وخمس مئة ريال تارة ثم أنقده يداً بيد إلى أن أسدد له الدين السابق.

وكان لي أصدقاء من المشايخ منهم من يُهدي علي، ومنهم من يبدلني كتاباً بكتاب، ومنهم من يبيعني نقداً ونسيئة.

وتقادم الزمن وحقق قلة منهم في ذمتي إلا أنه مع تقادم الزمن أصبح المبلغ غير خطير لكثرة النقد وضعف القيمة الشرائية، فأباحوني جزاهم الله خيراً.

وقلة منهم تجد عنده في رف أو رفين قواعد ابن رجب قد أكلت أعلاه الأرضة، ونسخة من الزاد وشرحه الروض المربع، وربما تجد أجزاء غير منتظمة من الشرح الكبير، وربما وجد من تفسير ابن كثير في بعض البيوت. وأكثر هذه الكتب القليلة لا تكاد تُقرأ إلا في مناسبة اختلاف في مجلس عادي.

وأهلاً عام ١٣٩٠ هـ وقد أرهقت ذمتي بالديون إذ كنت خلال عشر سنوات مضت أسدد ديناً بدين في سبيل الحصول على الكتاب.

ولا زال هذا الطبع يلازمني حتى اليوم.

وكنْتُ في صراع مع مشايخي وشبَّههم في كثرة اقتناء الكتب مع اختلاف المسوغات.

فمنهم من يسوِّغ بأن مرجعاً من الأمهات في فن ما يكفي المتعلم، ولا داعي للتأليف من جديد، وإذا أصبح التأليف ضرورياً فذلك يكون

أواسط العمر و
ومنهم من يع
طلب العلم.

ومنهم من ير
وكنْتُ أحضر
على السجادة،
خَلابة قط، ولا
يدفعني حب
كثيرة.

وتدفعني الحاح
ولا يزال الأ
عن الحصول عل
إلا أن رجائي
أنبياء الله ورسله

وبقيت في ذه
الأشعار في سيرة
وما كنت أح

بل لم يكن في
للأدوات القرطاس
بعيده كآخر ساء
والذي بغير علما
وحرجاً مني أن يذ

أواسط العمر ويكون الحصول على الكتب ميسوراً .
ومنهم من يعلل بإرهاق الذمة وضيق المحل ، وأن كثرة الكتب تعطل عن طلب العلم .

ومنهم من يرى توحيد الفن العلمي ثم التوسع في اقتناء مصادره .
وكنت أحضر بعض الزملاء إلى بيتي وقد نصصت له صوبة من الكتب على السجادة ، فأبيعه إياها بأوكس الأثمان بدرهمات ينقدها ، وما قلت «لا خلافة» قط ، ولا معيار للبيع ، وإنما هو كخرص التمر واللوبياء .
يدفعني حب العلم إلى شراء الكتاب بأغلى ثمن ، وفي الذمة في أحيان كثيرة .

وتدفعني الحاجة إلى بيعها بأوكس الأثمان .
ولا يزال الأسف يأكل قلبي على طبعات نفيسة بعثها خرصاً وعجزت عن الحصول عليها مرة ثانية بعد تيسر الحال .
إلا أن رجائي لها كرجاء يعقوب ليوسف عليها وعلى نبينا محمد وسائر أنبياء الله ورسله سلام الله وصلاته .

وبقيت في ذهني - وقت الصغر - أصداء ألفاظ من المعلقات ومن الأشعار في سيرة عنتره وبعضها من المحقق في شعر عنتره .

وما كنت أحسن فهم ألفاظها ، وما كنت أملك قواميس أرجع إليها .
بل لم يكن في الشقراء المعمورة مكتبات ، وإنما هناك مكتبة واحدة للأدوات القرطاسية وفيها المجلات المصرية في عنقوان عام ١٩٥٣ م وما بعده كآخر ساعة والمصور وروز اليوسف وكنت أشتريها وأقيد على حساب والذي بغير علمه ، وعندما بفاجؤونه بالمطالبة بالتسديد يلاقي حرجاً منهم وحرماً مني أن يضربني ، وألاقي حرجاً حينما أرى قلة ذات يده وعجزه عن

التسديد أحياناً إلا بعد مماطلات .

وأضمر أن لا أعود للشراء على ذمته وأكتفي بما ينفحني به على قلته .

فأنقطع عن المكتبة فترة ثم أعاود الشراء نقداً تارة وعلى الذمة تارة .

وهكذا أفعل مع أشخاص اشتريت منهم كتباً مغبرة كشرح الأعلام
الشتمري ، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية ، وتفسير الشوكاني ، وكتيبات
لصحفي مصر كمذاهب وشخصيات لأحمد بهاء الدين .

وكنت غير رشيد في معاملتهم ، فكانوا يضاعفون علي القيمة عشرات

المرات .

وكنت أتحيف شيئاً من متاع الوالد وعدته فأسدد لهم به بمقابل أن

لا يعلموه بأن لهم ديناً عندي .

وما كنت أحسن من المجلات المصرية إلا الاستمتاع بصور الزعماء

والمناظر وصور ذوي الفن .

وقد بدأ اقتنائي لتلك المجلات تقليداً لشباب كان والدي يغيظني بإطراء

سيرهم في العلم والتحصيل والجد على سبيل المقارنة بتهربي عن المدرسة

وإيثاري للقراءة الحرة .

أما أشعار عنتره والمعلقات فمع أنني لا أحلل ألفاظها إلا أنني أقتبس

من سياق مدلولها في الحماسة والعشق .

أترنم بها في مجالس العوام عند والدي فيطربون ويعجبون لما لا أفهمه

ولا يفهمونه ! .

أما أترابي من الشباب فأطفال هو ولعب وغناء في الأثناء ، وكانوا

يسخرون من تعلقي بالكتاب .

ولم أجد لي في أترابي أسوة ، وإنما عهدت أشخاصاً أكبر مني يجلسون في

المكتبة ويتعاما

في آخر مراحل

وكان الأس

ملء العين وال

وأمثال هؤلاء

وانطواء إلا ما

ومأثور ثقافتهم

ولهذا لم تحف

ولما رأيت

صداقات عله

ولم يكن هـ

ولهذا اندم

في الأحاسيس

حضانة الأب

ومع أنني

تربيته قبل الا

وفي السنوا

عظم يعجزه

إرماز من عينه

وقد فقدت

له بعد مماته

الدعاء .

المكتبة ويتعاملون مع المجلة والكتاب كالدكتور محمد البواردي وكان يومها في آخر مراحل الدراسة بالابتدائي .

وكان الأستاذ الشاعر سعد البواردي ينفذ إلى شقراء أحياناً، وكان هاماً ملء العين والبصر .

وأمثال هؤلاء هم قدوتي ولكنهم في غير سني ، ولهذا كان في حياتي عزلة وانطواء إلا مع أشياخ العوام الأميين فكنت أفكر بعقولهم وأتمثل سيرهم ومأثور ثقافتهم المثالي .

ولهذا لم تحفل حياتي وقت الصغر بصداقة لأحد أترابي أعتر بها . ولما رأيت النور في مدينة الرياض بعد عقدين من الزمن انخرطت في صداقات علمية ، فادبية ، ففنية ، فصحفية .

ولم يكن هذا الانخراط من المؤلف في حياتي إذ كانت حياة عزلة . ولهذا اندمجت غاية الاندماج ، وتعاملت مع حُجُز مجتمعي بحرية تامة في الأحاسيس والقناعات إذ طال علي أن أكون تلميذاً متلقياً وأن أكون في حضانة الأب وأنا في سن يرشحنى لأن أكون جداً .

ومع أنني حصلت من العلم مالا يعرفه والدي ، فقد كان توجهي من تربيته قبل الانخراط أبلغ من توجهي من علمي وتجربتي . وفي السنوات الخمس الأخيرة من عمره رحمه الله كان شبحاً وجلداً على عظم يعجزه حمل الرداء ، ومع هذا ظلت هيبته في قلبي توجهني أي حركة إرماز من عينه أو وجهه .

وقد فقدت بفقده خير معين على التربية الصالحة ، وأعلمني أن دعائي له بعد مماته لا يقبل حتى أكون صالحاً في ذاتي بحيث أكون أهلاً لإجابة الدعاء .

وفهمت من هذا أن بري به مشروط بصلاحي في ذاته.
ولا أزال أتعهد لمحاته الذكية في شريط من الذكريات لا يُمحي رغم
المغريات والوسط المقتضي جهاداً عنيفاً.
ويظل الإنسان بخير ما ظل ينوي الخير.

تبايع التراث العالمي :

قال أبو عبد الرحمن : اللهم إني أشكو إليك عجز حيلتي في معرفة
اللغات الحية لأقرأ أفكار الأمم الراقية وآدابها بلغة أهلها.
ولا أرى أن هذا العجز الذي أشعر به دائماً سيكون حافزاً إلى التعلم
وقد طعنت في النصف الثاني من العقد الخامس^(١) وكثرت الرعاية ومطالب
الأهل والولد، وصدئت حيوية اليفاع.
وأناس غيري شعروا بهذا في سن مبكرة، فهاجروا إلى بلاد العلوج
والتلوج وحذقوا لغاتها كالدكاترة الهدلق والمانع والحارثيين والتويجيين
وآخرين وقد ابتلعهم ديوان الخدمة المدنية، وتصيدهم الوزراء للمناصب
الكبيرة.

وهؤلاء من اللدات الأتراب.

وثمة آخرون من الشيوخ اغتصبوا معرفة اللغات عصامية وفتوة بعيد
الكهولة كشيخنا محمد العبودي.

وكذلك شيخنا عبد الله المسعري وأظنه الآن يشيم الهنيدة أتقن
الإنجليزية بعد الشيخوخة وَيُعَدُّ لطبع كتاب تاريخي ترجمه من الإنجليزية.

(١) نشرت هذه الترجمة سنة ١٤٠٤هـ، تقريباً.

وقد رأى
ومنهم الدكتو
ولكن يحو
أولاهما :
للقراءة والترج
عن الرطانة،
لقراء الجرائد
والناس :
ويحافظ عليه
وتوهجاً.
وأخراهما :
لن يغنيني عن
والروسي والتر
فأنتي لي الإ
وإذن فقرا.
حييت.

وعندما أع
المحض ومباد
اختير النسب.
لأنه قد يخرج
ثم يهزم بالحر

وقد يكون

وقد رأى بعض الفضلاء حيرتي بين شعور بالعجز وطموح إلى الكمال
ومنهم الدكتور يحيى ساعاتي فتعطفوا بأن يعلموني رطانة الأعلاج .

ولكن يحول بيني وبين قبول مكرمتهم قناعتان كونتهما :

أولاهما : أنه لو فرض أن تفرغي سنة كاملة للغة الإنجليز يؤهلني
للقراءة والترجمة : فإن هذه المدة كثيرة على ، ولا أستطيع الانقطاع فيها إلا
عن الرطانة ، لأنني مشدود بها أنا بصدده قراءة أو تأليفاً أو تحقيقاً أو مغادة
لقراء الجرائد .

والناس يعلمون أن من تبجح في العقد الخامس يرتعش على وقته
ويحافظ عليه أكثر وأكثر من ابن العقد الثالث وإن كان الأخير أشد حيوية
وتوهجاً .

وأخراهما : أنه لو فرض أنني أتقنت الإنجليزية في سنة واحدة فإن هذا
لن يغنيني عن مطالعة الفكر والأدب والفن الفرنسي والألماني والإيطالي
والروسي والتركي والإسباني والفارسي . . . الخ .

فأنت لي الإحاطة بلغات العالم لو عمرت عمر لبد؟ !

وإذن فقراءة الكتب المترجمة عن اللغات ستظل حاجتي الضرورية ما
حييت .

وعندما أعلم علم اليقين أن المدرسة الفلسفية العقلية نسبة إلى العقل
المحض ومبادئه الفطرية ، وأجتهد في توجيه كلمة عقلاني لغة ، وأنه ربما
اختير النسب على صيغة فعلاّن مبالغة فإن اجتهادي سيظل على استحياء ،
لأنه قد يخرج من المتدى من يقول : العقلانية ترجمة أمينة للكلمة الفلانية
ثم يهزم بالحروف الأعجمية .

وقد يكون مترجم المادة غير فقيه فيها ، وقد يكون القارئ غير العارف

بلغة أجنبية أفقه في المادة وأعرف بسياق الفكر البشري، ولكن المهذرم
باللغة الأجنبية يغتصب حق الأفقه ويدعيه تحت ستار إستجرار الجملة
الأجنبية الأصل.

وأذكر أنني قلت في إحدى المناسبات لو اجتمع كل مترجموا الأرض ممن
يحدق الألمانية والإنجليزية على أن كتاب أمانوئيل كنط باسم (العقل
المجرد) ما أطعتهم ولحججتهم وإن لم أجد من اللغتين حرفاً، بل لابد أن
يكون باسم (العقل الخالص) أو (المحض).

لأن سياق فلسفة كانت في الفكر البشري وفي كتبه المترجمة تقطع بأن
المواد خلوص العقل أصلاً ومحضيته، وليس المراد تجريده فيما بعد.
وكان الكتاب نشر بترجمة الأستاذ أحمد الشيباني باسم العقل المجرد.
وقرأت أنه طبع أخيراً عن دار وهبة بترجمة مختص آخر باسم العقل
المحض.

وهذه منغصات وأعباء من الجهل باللغة الأجنبية ولدت لي عقداً.
وهناك أشياء ليست عُقداً ولكنها ضرورات، فمن ذلك قدرة متعلم
اللغة على استيعاب المستجدات والمتغيرات العالمية في نطاق حقله إن كان
باحثاً جاداً.

ومنها القدرة على تعميق المسألة التي يبحثها.

ومنها القدرة على التوصيل آخذاً ومعطياً.

ومنها الشموخ على أدعياء التمعلم تحت ستار الرطانة.

ومنها القدرة على العطاء المؤثر فينا وفي الآخرين سواء أكان خيراً أم شراً
فإشرافنا على الآداب العالمية واستفادتنا منها من خلال إحسان عباس وجبرا
إبراهيم جبرا ومكاوي والبياتي ليس كإشرافنا من خلال العقاد أو الزيات
رحمهم الله.

ومنها إرض
أو ترشيح تر
قال أبو

أجنبية، وأعد
أولهما:

والغرب يتف
راجلاً من

عبدالوهاب
وابن رشيد -

تارة، وأستاذ
مطالعة تصف

وثانيهما
الجد، فقد و

وأنه ربما
كتاب الأيماز

«ولله تعالى

فبالفارسي
وبالعبراني

وباللاتينية
وبالصقل

وبالبربري
فياليت أ

تبايح التبايح

ومنها إرضاء الطموح الفكري والانتماء ديناً ووطناً وتاريخاً ولغة في ترجمة أو ترشيح ترجمة ما يريده المنتمي لا ما يراد له .

قال أبو عبد الرحمن : وعقدة الذنب وأم التبايح في دنياي الجهل بلغة أجنبية ، وأعظم آلام هذه العقدة ألمان :

أولهما : غبن الرفاق والأتراب الذين غادروا البلاد إلى آفاق الشرق والغرب يتفقهون في لغات الشعوب بينما بقيت بحذاء من الربل أتردد راجلاً من طلعة أم سليم في الشميسي إلى شارع الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي يصب في دخنة على مكتبة حنيشل ومحمد رشدي وابن رشيد حيث كنّ أمهات المكتبات في الرياض أنقدهم من قوت الرقبة تارة ، وأستدين منهم تارة ، وأتعلى بتقليب ومطالعة مالا أستطيع شراءه مطالعة تصفح تارة !! .

وثانيهما : غبن تخلف الاقتداء بأبي محمد ابن حزم رحمه الله في أمور الجد ، فقد وجدت في عموم كتبه إشارات تدل على أنه يعرف لغة أجنبية . وأنه ربما عرف أكثر من لغة ، وربما دل على ذلك قوله في المحلى في أول كتاب الأيمان .

«ولله تعالى في كل لغة أسم :

فبالفارسية : أوزمز .

وبالعبرانية ، أذوناي ، والوهيم ، والوهاء ، وإسرائيل .

وباللاتينية : داوش ، وقريطور .

وبالصقلية : بغ .

وبالبربرية : يكش .»

فياليت أحبابي متعلمي لغات العالم اهتموا بمراد الله جل جلاله من

قوله : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ .
[سورة براءة، الآية ١٢٢] .

هذا الفقه مطلوب من جيل الشيوخ وفيهم بعض أصحاب المعالي كالذكاترة الخويطر والوهيبي والقصبي ومحمد عبده والحازمي وعزة خطاب والضبيب والتصغير للتمليح . . . الخ .

وننتهي بجيل الكهول من أمثال الهدلق والمانع والحارثيين والتويجيين . . . الخ .

إن من مقتضيات نفرتهم السابقة أن يمتنعوا بالتراث العالمي فكراً وأدباً وفناً بالترجمة والدراسة والمقارنة فيشبعوا نهم من لم تكتب لهم النفرة .
والله إن هؤلاء لمقصرون ، وأكثرهم لم يترجم أثراً واحداً .

وبعضهم لم تخضده أعباء المنصب كالدكتور القصبي ، ولكن مشاركته محسوبة له في نصاب الإبداع الأدبي العربي شعراً ومقالة .

وإذن فقد أعطى من حق الموهبة ولم يؤد حق الحصيلة العلمية والنفرة .
وبعضهم كانت له توثبات ثم لفه الروتين وشغلته الحسبة الوظيفية وعلى الله الخلف .

وقد اختطفته مرات يختلس القراءة في كتاب الروح لابن قيم الجوزية وبحسن للنقاش العلمي حنين من غالبته الفرص .

إنه الدكتور الخويطر مع أن توثباته السابقة إما تحقيق كتب تاريخية نابع من هوايته ، وإما كتب نشرها لشيخه ابن سعدي رحمه الله ، ولم يبين اسمه على سبيل الاحتساب .

وإما ضم
الفنية .

ولم يؤد حق
به المملكة ،
عودته .

وحق هذه
مصحوبة ترج
لا سيما أن

وبعضهم
يساهم بتأليف
ولولا أنه .

إنه شيخنا
إنني أتأب
استحضار لنا
وبذلك
والمتخصصة ،

ومع هذا
الوصل بيننا
إن في الأ
والمجاز .

ولكن المدا
تعجز عنه الـ

تبايرج التبايرج

وإما ضميمة من الخواطر امتزج فيها التأمل والفكر والملاحظة والخفقات الفنية .

ولم يؤد حق غربته الطويلة الطويلة لا سيما أنه أول دكتور سعودي فرحت به المملكة ، ولا أزال أذكر كلمة الشيخ عبدالله بن خميس التي زكّى بها عودته .

وحق هذه الغربة فيما أرى أن يترجم لأبناء أمته مآثور التراث الإنجليزي مصحوبة ترجمته بالتحقيق والمتابعة .

لا سيما أن باع بني بلدي في الترجمة قصير جداً .
وبعضهم انجمع على نفسه وعكف على مكتبته قارئاً وحافظاً دون أن يساهم بتأليف أو تحقيق أو ترجمة أو مغادة لقراء الجرائد .
ولولا أنه خرج أجيالاً من طلاب الجامعة لاتهمته بالأنانية .
إنه شيخنا الدكتور عبدالله الوهبي .

إنني أتابع على سبيل المثال مجلة المعرفة السورية فيهلوني ما أراه من استحضار للتراث الأجنبي والمتغيرات الثقافية العالمية ترجمة ودرسا .
وبذلك تأخذني الغيرة الإقليمية إذ أرى صحافتنا ومجلاتنا العامة والمتخصصة وأكثر مؤلفاتنا تنكس في مكرور التراث .

ومع هذا لا أرى لمن ذكرتهم ومن هو مثلهم حضوراً يكونون به همزة الوصل بين التراث العالمي والإلاح العربي .

إن في الأدب والفن العالميين ما تعجز عنه الترجمة كالأوزان والصور والمجاز .

ولكن الملمين بالأدب العربي وأحد الآداب العالمية يستطيعون تبيان ما تعجز عنه الترجمة دراسة وتنظيراً .

وإن دراسة أصول اللغة العربية لن يستطيع القيام بأعبائها من كرع في
مناهل سيبويه والفارسي وابن جني وابن فارس .

بل لابد من الإمداد بمنابع الدراسات الألسنية العالمية للكشف عن
مناهج وسبل جديدة .

وقل مثل ذلك عن بقية فروع العلم البشري ، وقل أكثر من ذلك عما
يوجد في المكتبات العالمية من رحلات ودراسات عن بلادنا وقيادتنا
وشعوبنا .

إنني من هذا المنطلق أدعو إلى نقابة سعودية للمترجمين تفرض على
الشيخ والكهول ما يجب عليهم من حق النفرة والحصيلة الأجنبية بتنظيم
يتناول جميع اللغات ويشمل جميع فروع الثقافة البشرية بمعادلة الأهم
الأهم .

ونشاط المطابع اليوم مقصور على إحياء كتب التراث دون الإمداد
بالمأثور العالمي .

ومع ما في هذا النشاط من إيجابية : فإنني أخشى أن ندور على ذواتنا إن
كان ما يستحيا مكرر العنوان أو المادة .

تباير شقاء :

كل أعمال الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز تعتبر تاريخاً للبيئة في مجتمعه
في العصر الفيكتوري .

ورغم قصر الفاصل الزمني بين ديكنز وبين القارئ الإنجليزي اليوم
فقد قرر الدارسون لأعمال ديكنز أن القارئ الإنجليزي اليوم يكاد يعتبر
مادتها التاريخية خيالاً مجنحاً لا يرتبط بالواقع ، مع أنها في صميم الواقع
وصورة أمينة له .

ولقد تعنيت قراءة بعض أعمال ديكنز لا سيما ديفيد كوبرفيلد فرأيت في ذلك المجتمع شهامة ومرحمة ونخوة وتديناً نصرانياً قبل أن يسرق اليهود دينهم، وقبل أن تتعلم النصرانية الرحيمة قسوة القلوب على أيدي اليهود.

وقد ثبت تاريخياً أن الظلم الفاحش الفظيع ووحشية التعذيب في أسبانيا مما لا يعرفه النصارى ولا تقوى قلوبهم عليه قبل أن يتعلموا على أسلاف اليهود الدونمة، وكان إخوانهم يهود ليبيا يتمنطقون بأمعاء ضحاياهم ويمصون دماءهم إحياء لسنة فطير صهيون.

وما قرأته من مرحمة في أعمال ديكنز يكاد يكون عادياً بالنسبة للمسلم العربي الشرقي.

ولكنني عرفت السر في اعتبارهم ذلك خيلاً من الدكتور محمد عبدالله الزلفى وغيره.

علمت ذلك لما قيل لي إن العجوز أو عجوزه يتجمد أمام دفائته ميتاً فلا يعلم عنه إلا القسيس بعد ثلاثة أيام حين يفقده في الكنيسة.

وعلمت ذلك لما قيل لي إن أمثال هؤلاء يموتون بهذه الصورة وأبناؤهم وأحفادهم مزجر الكلب عنهم.

وعلمت ذلك لما قيل لي إن أحدهم يؤمن ضمن بنود التأمينات التي لا حصر لها على مُعَزِّ محادثته ثلاثة أيام إذا ماتت عجوزه، أو يحادث عجوزه إذا مات هو.

علمت ذلك حينما كنت أقرأ الأخبار الصاعقة المفجعة في جريدة الشرق الأوسط وغيرها عن الاعتداءات على الأطفال جنسياً وبقتلهم وبإماتتهم من الجوع.

حتى القوميات كانت إطاراً إعلامياً هشاً لا جذور له في قلوب الأفراد، لأن أواصر البر والصلة مفقودة بين ذوي القربى، فلا رجاء في آخرة، ولا مجتمع تقوم أعرافه على بر الوالدين وصلة الرحم والإنفاق على من تلزم نفقته في الشرائع السماوية.

ذلك أن الماسونية الصهيونية السياسية سرقت الأديان من النفوس. وما في أعمال ديكتز ليس كثيراً ولا مدهشاً في نصاب الشرقي، ولكنني أعدل ذلك بهمومي وأعبائي لا خوفاً من تردي الحال كما تردت في أجزاء من بلاد الثلوج والعلوج كانت حديثة التاريخ. فمعاذ الله أن تصل الحال إلى ذلك وديننا الإسلام ومجتمعاتنا مضرب المثل في النجدة والمرحمة والصفاء.

ولكنني أحزن في قلبي حنين ذات الحوار إلى جيل من مجتمعي فقدته منذ أربعين عاماً. ذلك الجيل أشياخ من العوام لا يعرفون بنوكاً ولا مصارف ربوية، ولم يأكلوا لقمة حراماً قط.

تأكل الطير من أيديهم لسلامة قلوبهم. ينفجرون بالضحك أمام نكتة عادية في عرف العصر الحديث لأنهم لم يصلوا إلى مستوى ذكاء الذئاب!! يغلبهم النعاس في صلاة العشاء ويحيون سواد الفجر وبياضه، لا يعرفون السمنة والعكن وتهدل الثروب.

ينفقون رزق اليوم ويثقون باللطاف الله في الغد. ما على ظهر أحدهم من ملابس وحذاء وعباءة لا يساوي أربعين ريالاً. ينفقون على الأهل والعيال، ويصلون الرحم وذا القربى، ويتعرضون

للأفق وابن
المسرفة، ولا
بيض الله
لقد كانت

الجغرافيا،
الأطلنطي!!
ولا بدع في
نحن كم بيننا
وإنما البد
سنة^(١)!

والسر في
القرية التي
ومن رام
وإن بعدت
الطروس في

قال أبو
معلوم منسي
قريتي فأقنعوه
عشر!!

(١) كتبت هذه

للأفق وابن السبيل يرجون ما عند الله ، وليست موائدهم للأعراف
المسرفة ، ولا لمحاباة وجهه أو شريف .

بيض الله وجوههم وجمعني بهم في دار كرامته ، فما أمتع طفولتي معهم .
لقد كانت جزيرة الاطلنطيد ولغتها الطوارقية لغزاً حير المؤرخين وعلماء
الجغرافيا ، ولقد قال أفلاطون : إنها قارة ابتلعها فيضان المحيط
الأطلنطي !! .

ولابدع في لغزية ذلك المجهول لأنه قبل أفلاطون بمئات القرون ، ثم
نحن كم بيننا وبين أفلاطون ؟ ! .

وإنما البدع أن تكون قريتي لغزاً غامضاً وأنا الذي عايشتها قبل عشرين
سنة^(١) ! .

والسر في ذلك أن عشرين سنة وعيتها غيرت معالم الحياة فلم تعد قريتي
القرية التي عايشتها لغة وخيالاً وعقلية وسلوكاً وتعبيراً ؟ ! .

ومن رام أن يتحدث بشيء من هذه الجوانب عن قارة اطلنطيد فلا يلام
وإن بعدت الأحقاب لأن الروائيين والمؤرخين لا سيما الفرنسيين غمروا
الطروس في مئات المؤلفات عن القارة المجهولة .

قال أبو عبد الرحمن : أما أنا فلا أتحدث عن مجهول وإنما أتحدث عن
معلوم منسي إذا استعادته الذاكرة استبعدته ولم أعرف غيري من كتب لأبناء
قريتي فأقنعهم بأن ما سأقوله كنا نعيشه في العقود الأولى من القرن الرابع
عشر !! .

(١) كتبت هذه التبريحة في حدود عام ١٤٠٠ هـ .

وإليكم البيان :

لم نكن نعرف ساعة بقبن ولا غيرها مما يوضع كالسوار أو يتدلى في خابية فوق الثدي تعرف الآن بمخبة الساعة وذلك لرسم جدول أعمالنا ونوقته، وإنما كانت لنا مقاييس كلها لضبط الوقت.

فبعض من أبناء قريتي يتناوبون الحرفة مع زملائهم فكان المستيقظ يوقظ النائم بعد عمل محدد فيستيقظ ثم تكون له عادة فيصحو عند هذا الوقت ولا بد.

ومن هؤلاء الكُلاَّف أصحاب السانية ففيهم الغابش من أول الليل، ليوقظ الجاهم قبل الغلس وهكذا دواليك.

وبعض من أبناء قريتي يهتدي بالنجوم وبعض من أبناء قريتي يصحو على صوت أبي حسان.

وكان جدي عبدالرحمن رحمه الله وكان صاحب نكتة يعرفها أبناء قريتي لما فقد بصره يهتدي بضرع شاته فإذا رأى في الضرع شلقة (أي ملء اليد) عرف أنه ذهب من الليل هزيع، فإن وجد الضرع محصراً حاقناً عرف أن إمام المسجد يتفقد المصلين بأسمائهم عقب صلاة الفجر!

وكان بعض أبناء قريتي يهتدي بجاره فإن كان جماًلاً استيقظ على رغاء ناقته وعرف أنه إنما يشد عليها قبل أذان الفجر الأول بقدر ما يشد عليها!! وإن كان جاره فلاحاً اهتدى بدفلة محاله التي تترنج في الجهمة الأولى وهكذا وهكذا!!

وأحياناً يختلط الخميس بالجمعة على أبناء قريتي وقد حدث هذا فعلاً في عسيلة بلدة الحفافة في عهد الشيخ ابن عودان رحمه الله. فإذا خطر لهم فلان الصالح المطوع قد أردف ثوبين أبيضين وصبغ ما

تحت النحر به
شماغ تروجل
بين أذنيه كأن
ويجس الأ
أن اليوم جمعة
الجمعة، ومن
الوليمة!!

ثم يصفط
وكان أحد
أن تحفظوه عر
لأن فلاناً لا

وكان من
في الصيف
قاموس قريتي
وإنما كان
منه كشائر

أما نساؤ
وإذا عرج
الإغراء التي

مع أنه لا
عيون بنات
إنما ثما

تحت النحر بمسحوق أحمر يمونه الفروك وعليه شِقْرة . . والشقْرة غِرة أو شماغ تروجل ثم تقص نصفين لتقوم عن شماغين اثنين فتتدلى لي أطرافها بين أذنيه كأن طرفها لسان طير.

ويجلس الأرض بشومة (وهي عصاه الغليظة) وحينئذ يعرف أبناء قريتي أن اليوم جمعة لأن هذا الثوب وتلك الشقْرة لا يلبسان إلا من الجمعة إلى الجمعة، ومن العيد إلى العيد، ومن العرس إلى العرس، ومن الوليمة إلى الوليمة!!.

ثم يصفطهما أي يطرقهما في السحارة!.

وكان أحد أبناء قريتي العابئين إذا تجرد من ثوب جديد قال لأهله: إما أن تحفظوه عن الغبار والأوساخ، وإما أن تعطوه فلاناً يلبسه إلى أن أحতاجه لأن فلاناً لا تبلى معه جدة الثوب ولا تخلق، ولأنه لا يجلس إلا زُبْعة!!.

وكان من أبناء قريتي من يلبس الثوب وهو من القماش الشفاف المللمل في الصيف ثم يشتو فيه بعد أن غلظ مجسه من الأوساخ، لأنه ليس في قاموس قريتي خانة للتأيد أو أبو عزز. . . ثم الشانبو والصابون الممسك.

وإنما كان لدينا الاثنان لتنظيف ثياب الرجال فيتخلل في مسام الثوب منه كشناتر الأبر!.

أما نساؤنا فيصبغن ثيابهن بقشر الرمان!.

وإذا عرجنا على بنات حواء آنذاك فلك الحق في أن تسألني عن وسائل الإغراء التي جعلت محبسنأ الهزاني شاعراً غزلياً رقيق الوجدان!.

مع أنه لا عطر فرنسا ولا أزيائها ولا تفاح فلسطين السليبية، ولا زرقة عيون بنات الأصفر، ولا رمال شط الإسكندرية في لفح الهجير.

إنما ثمة سارية أي عمود تحمل السقف أعلاها قد سفعه الدخان

وباضت عليه الأوزاغ وفيها درج حائطي يعرفه أبناء قريتي باسم الفارغة
يتألق بمسحة من الجص تمسك بقطعة مرآة منظرة، وفي الفارغة قارورة
كحل مرودها من القماش الملفوف، وقطعة كالقرفة يسمونها ديرمانا لتلعيس
الشفاه!

وكانت بنت حواء تقف أمام المرآة فتضع خنصر شملها في صمخ أذنها
فتسمع له صوتاً كسفاد القطط!

وفي اليد الأخرى مروود القماش ينهال منه الكحل كيفما اتفق، فلا ترى
الكحل كروقي عدي بن الرقاع، أو كقلم أصاب من الدواة مدادها...
الخ!

وإنما تجد سفاء من الكحل فوق الحاجب وتحت الحدة!!

ثم تفرق الرأس على قرنين كبيرين... أو أربعة قرون بعد أن غسلته
بالسدر (الخط) ومشطته بمسحوق أحمر!

قال أبو عبد الرحمن: ولا أكتمكم: أن فرقة الرأس آنذاك لو وجدت
اليوم لكان لها مذاق!

فمن كانت منهن موسرة رصعت حلقة في الناصية، وزماماً في الأنف،
ومعضداً في اليد، وخلخالاً أو حجالاً له في الرجلين رنين!

ولقد طالما حاذر آباؤنا من رنينه عند المداعبات لأنه يغري بهم الأطفال
في سباتهم، وربما أغرى بهم ضيف الدار حيث ينبغي الستر!

وكنا في قريتنا نجلس بعد انفتال الإمام من صلاة العصر لنسمع مسرداً
من كتب الوعظ يبدأ الدرس بقال المصنف رحمه الله تعالى ثم بآية فحديث
فحكمة ثم يقول القاريء: «شعراً»!

وكان النساء يأخذن بالأبواب ومضايق الطرق، ولا تسمع لهن إلا خنياً
ويكء فإذا قال القارىء: والله سبحانه وتعالى أعلم: هب النساء من
مرابضهن والمصلون لا يرمون من مكان العبادة حتى يتهياً لهم أن الطريق
خلا من النساء، فمن كان غير آدب دلف إلى بيته ليتناول وجبة العشاء،
وإن أولت الجفلى رأيت المصلين زرافات ووحداناً مجفلين إلى المأدبة، وإنك
لترى البيت يغص بأهل القرية حتى السطح، وكانوا على كثرتهم يتفقدون
بعضهم ويتساءلون: لماذا لم يحضر فلان؟

ألم يدع؟

أم أن في النفس شيئاً؟

فإذا بسملوا ثم حمدلوا فركوا أيديهم في التراب أو باطن الرجل أو في
خيشة ثم غسلوا بالماء الحار ثم بجفلون إلى سوق الجلب (المجلس) لا سيما
إن عرفوا أن فلاناً الميت ستباع تركته اليوم ليساوموا في شن قربة، أو أحذاق
رشاء، أو بقايا ميقعة وكل دلال وحلقته.

وتجد مواعيدهم وزياراتهم بعد صلاة الفجر أو بعد طلوع الشمس،
وبعد صلاة المغرب، وبعد صلاة العشاء الأخير أو بعد القهوة الأولى!
وإنك لتجد القرية تنبض بالحوية والحركة في بكورها فهذا يحمل مخرفاً
ويجر عسيباً فإذا دنوت منه طأطأ رأسه لتناول ما تشاء من فذات تمر.

وذلك يحمل زنبيلاً من التبن المصفى.

وآخر يتقلد كراً متجهاً صوب العوالي ليجذ ما شمس من العيدات.

وعندما ترنو الشمس ويتضرج الأفق الغربي تجد القرية في هدوء وصمت
حاشا شلة من العزاب تتمدد على الأنقاء في سمر وحصد للأغراض أو شلة
من الكهول تسمر على مفارق الطرق أو ظهر المسجد أو شلة من الأحداث

يغنون على الأنقاء البعيدة ويشبون بالمساتير.

وكان الكبراء والوجهاء يُصطادون في رياض المساجد وكل وجيه معروف مكانه في الصف الأمامي في كل وقت وإنها لذكريات مائعة ذكريات قريتي تلك.

وترى راحات شققته الحرف، واتخذ منها قتاد التشرين ولفحاته ثقوباً كأنها بيوت النمل لا تلتقي كف أحذقهم على عود الثقاب. لا يأخذون من النوم إلا كرمات إن أحصاها المتدكرون من ذوي البنان الناعم زموا آناهم!

ولا يستلقون على مهد وثير. ينام أحدهم خف سانيته أو في صفة بين أعواد التبن وترنيق الخفافيش.

لم تسمح لهم أعواد المناسج في شتى البقاع بعينات الأصواف، فأكثرهم حبوراً من يردف ثوبين من الخام ويتقرفص في عباءة مزوية أوزبون كأن ما بين سداها أهداب القطط.

لا تعرف لهاهم ما أنجبته أراضى لبنان وسفوحها، ولم تتفتح لهم باريس بعطورها وأزيائها، ولا تقشعر جلودهم آبية من سلاله سنام تامك أو أذنان ضأن تنماع على الجفان انمياعاً.

بل لا يكاد يوجد عندهم السنام التامك وإنما يهرعون إلى عين الناقة بعد ذبحها يقلقلونها على النار عليها تندى بدهن فإن تندى منها الدهن بشر بعضهم بعضاً بأنها تلخص وهي لفظة مألوفة في قاموسهم، وإلا تصايحوا: إنها معية.

ينتقون من المطية قوائمها وأخفافها يعرشون عظماً، ويتقربون عصبا، وأمتع شيء لديهم البخص.

ويفرشو
ويعوذونها عر
لدهان شطب
الذرة والدخر

يصاب أ-
(والموت في اا

تقرأ غزه
فتفتت لها د

بسبب هذه ا
عند الإقبال

فلا عطر

ولا أزياء

ولا خضر

ولا شيء

يقول ابن

مالي ه

ولو كان مع ا

قعيدته من ال

كان ذلك لقا

بعد عن

يسابقون

ويفرشون ما زاد عن الحاجة على مناسف الخوص مملحة ليوم آخر،
 ويعوذونها عن الأوزاغ والهوام بفذة من التمر ويتمخخون عظمها يستودكونه
 لدهان شطب أو سير أو لتنعيم دراجة ومحالة أو لتأديم ثلاثي (مثلوث) من
 الذرة والدخن والبر، وقصة حوس ودوس مع بنت عمه مشهورة متداولة .
 يصاب أحدهم بالتزيف فلا يجد طباً يمنعه، فيتسلى بأن الدم شر خارج
 (والموت في الشر الخارج!!).

تقرأ غزلهم في أشعارهم كآبيات السكيني وعوجان والبواردي ومحسن
 فتفتت لها كبذك رقة، ويخفق لها قلبك اشتياقاً مع أنك لا تجد عندهم
 بسبب هذه الأعباء والظروف القاسية لعساً ولا ثمانى ينقسمن أربعاً أربعاً،
 عند الإقبال والإدبار! .
 فلا عطر فرنسا! .

ولا أزياء باريس! .
 ولا خضروات لبنان! .
 ولا شيء من المباهج يعين العواطف المشبوبة على هذا الغزل الرقيق .
 يقول ابن بريثن (عوجان) :

مالي هوى إلا هوى الخضرا اللقاوية

غيره من البيض ما يطري على بالي

ولو كان مع المهندس في رحلته إلى بحيرة كومو وجبالها وأديارها، ولو كانت
 قعيدته من العالم الجديد يستميحها العذر إن طغى الجسد على الروح، ولو
 كان ذلك لقال :

بعد عن البلقا وحامي مرقها .

يسابقون العصافير في جهمة الليل ما بين أشيمط عقد وسطه بلسان

ثوبه يصفى التبن والعشب في جمد الماء وإذا تسربت دمة أحدهم صبغت ذراعه .

أو شاب لم يبد له الكبد من شبابه أثراً يعالج رغاء ناقته ليعزب ثلاثة أيام في استجلاب عشب أو حطب أو خرزات من الحصى أو ضالة أو يناول رسالة وقد يكون كل ما وقر على ذلوله من أداة مرهوناً في فذة تمر، أو صاع شعير، أو سلالة خمار (شيلة)!! .

لا يجد الفأر في بيوتهم مقيلاً . . قد توحشت قططهم ، وتلونت كالحرباء حتى اسودت وتبتلت للنقص في مضائق البيوت (الصلوخ) تندى عيونها من الإعياء .

أو شاب يأخذ بذيل سانيتها (كالف) إذا لفحه نسناس من الشرق عرك نقرة في الشفة العليا بأهداب القطط الأنفة الذكر حتى يتركها كالرثة في رقتها وحرمتها منيته أن يكون كالحشاش لا يرده عن كنوز التمر باب ولا قفل . قال سانيتها :

ليت من هو من النوامس جعابة

ياكل من الخضري ولو صك بابه

وقال آخر في شطر بيت : إلى صرمن النخل فدغي ونابوك (أي وأنا أبوك) .

يفرحون بالوليمة إذا أوجبت الجفلى عند أحدهم خلال الشهر مرة ، ويرهفون آذانهم لأنبائها ، ويسخط ساخطهم إذا لم يدع .

ويتحامون الجلوس في الزوايا (الربع) لأن المستديرين على المائدة يستغنون عن صاحب الزاوية وقد قعدت بهم السنين عن الحرفة يعمرسون المركز بأخبار بقعاء الدبدبة وأم العصفير وهاك السنة ! .

لا يطمحون إلى أمل، ولا يجترون بخطر! .
وكانوا مع هذا بالله أعرف، وألستهم رطبة بذكر الله يشكرون الله في
السراء والضراء .

لا تفوتهم جماعة المسلمين في صلاتين يعرف بهما نفاق المنافق .
لديهم القوة أحياناً وليس لديهم الذكاء أحياناً آية ذلك تفصيلهم
لبيوتهم .

إن سمحت بديتهم فبدون تعمل، وإن تألقت نباهتهم فبدون ثعلبية،
وإن تأججت عواطفهم فعن صدق .

وجيلنا اليوم جيل الرقة والعدوية، لا تفرح بهم لكربة، ولا تستقطبهم
لحمياً ولكنهم يطربون العيون إن خزرتهم بلهو أو عبث أو مداعبة^(١) .

ولقد ألمحت في توطئة هذا السفر إلى أنني لم أكن خريئاً، وهذا أمر نشأت
عليه ولازمي إلى هذه اللحظة، فإني أدخل البيت في القرية التي أعرف
أحياءها طويلاً وعرضاً فلا أعرف قبلتها إلا بالسؤال أو بالإطلاع على نافذة
تكشف الشارع .

وإذا علمت القبلة في غرفة لم أعرف القبلة في الغرفة الأخرى إلا بقياس
على الغرفة الثانية .

ولضياعي في شوارع الرياض قصص وذكريات لا تنسى عايش كثير من
الأحباب بعضها .

بل خرجت مرة من الزلفي أريد الرياض على طريق الجمعة القديم
قبل وجود الدائري مخترقاً الغاط فإذا بي أعود للزلفي مرة ثانية لا أدري كيف
رجعت .

(١) كتب هذا قبل ظهور جيل الصحوة، وانتشار الملامح الشرعية مظهراً ومخبراً .

وحسبي هاهنا أن أذكر حادثة عن الضياع من ذكريات الطفولة في
مدينتي تلك .

لقد نقدني والدي رحمه الله بضعة درهماً ليلة الهلال لعزل غنمنا من
ثقة شقراء بأعلى المسيل حيث حجز الراعي غنم الجماعة كعادته ليلة كل
هلال ليستوفي أجر رعايته عن كل رأس .

ف عزلت غنمنا سوى شويمة ألوفة أنام أنا وأخي عبدالله عند مربطها في
سطح العلال، ولم تنتقل حمى مالطة إلى جزيرتنا بعد .

وأشعرني الشاوي (الراعي) أنها ربما اختلطت بسرح باب العطيفة،
فدرعت الشوذي والطريف واجتزت باب هداج فألفيتها خارجة من باب
هداج فطردها حتى رمت بي في منازل البدو القطين المعروفة بجميعة، وقد
أنهكني البحث والتعب مع صغر سني طيلة المغرب وأوائل العشاء، وما
عدت أعرف شرقاً من غرب، وكنت أجراها تجاه الحسيان شمالاً وجهة بلد
أشيقر !

وكانت تجرني إلى شقراء !! .

وألقتني طريحاً على الأرض بعد طول مدافعة وخرج واحد من القطين
يقطع أشباهي في ظلام الليل ليلة السرار بعين لا تطرف، ويقول : وين تبا
[أين تريد] يا الماخوذ . . اتبع الشاه وهيه تدلك ؟ !! .

وربما تطرقت من ساباط مظلم (مرمل - مجباب) ضيق، وليس هناك
أنوار جهورية كهذا العصر، وإنما يكون إيقاد السرج في مناسبات رمضان،
فتعتريني قشعريرة ووحشة كما انتفض العصفور بلله القطر، فأصبح بأعلى
صوتي : مَنْ عَيْن العنز ؟ .

أو من عين الشاة ؟ .

هكذا يقول كل من ضيع ثاغية ! .

ولم أضيع ثاغية أو راغية، وإنما هي الوحشة، فأتلعلل بالمناجاة لعلني أسمع صوتاً مؤنساً .

وكنت أظن أن هذه الحيلة من بنات أفكار بيدي أن الوالد وغيره رحمنا الله وإياهم حدثني عن مستوحش من أهل القرية في سوق القطعة بشقراء كلما أراد أن يعبر من نافذ وجده مشموماً بجدار ذي طين رطب يلمسه بيده لمساً وما هو إلا الوحشة أو تخيل فسقة الجن، فعجب للأمر: كيف تؤخذ القطعة من كل منافذها ؟ ! .

وكانت القطعة سوق الجزارين .

فلما أعياه الأمر وكان خارجاً لصلاة العشاء نادى بأعلى صوته : من عين العنزا ! .

من ضايح له شاة !! .

وكان نداء غريباً أحدث مهاتفة محب للاستطلاع عن ضائع موجود، فاقتحم به السجف الموهوم .

وكان النوم قيظاً بسطوح العلامي في الدور الثالث، ويستحكم الظلام بعد صلاة العشاء .

وقد نهتنا عجائزنا عن الركض حال الوحشة، لأن المستوحش إذا ركض استخف .

والمسافة بين باب السوق إلى السطح شاسعة بين مرامل ومجايب وسرايب مظلمة، وكنت أناجي من في السطح بتعداد أسماء إخواني وأخواتي: من هو النائم، ومن هو المستيقظ، وهل القربة معلقة في السطح . . وهل وهل ؟ ! .

وكانت والدتي رحمها الله تجاوبني بفضول من القول أيضاً، والغرض من ذلك إزالة الوحشة ومُرادُّ الصوت كما يقول العوام .

وذكريات الطفولة في القرية بعد تبدل الحياة من نواذر الفن التاريخي .

وأذكر أنني أسمعت سماحة الشيخ عبدالله بن حميد رحمه الله تعالى قصة الذقن المزيف، ومرّ فاصل من التعليق والمداعبة، ثم عدت إلى تقميشات جمعتها من كتابي هموم عربية تتعلق بالقرية فيها ذكر للفارغة والطرمة وزينة بنات القرية .

وفيها قصة لجدي عبدالرحمن (دحيم بالتكبير) وكان مشهوراً بالدعابة، وفيه يقول المؤرخ الشيخ ابن عيسى عن بائع حمل حطب أناخ ببابه يدعى الضب :

بشر دحيم الضبُّ قد قدما

له نفاخ يتغني لحما

وكان رحمه الله يأتدم دائماً على شح في الدسم، وقلة في الموارد .

وكانت تلك الطرف القروية التي أتلوها لا تساوي في نظري حبك قصة الذقن المزيف !! .

وكان الشيخ العبودي يتمايل للطرف القروية وقد أشعري فيما بعد أن للقصة رجالاً يقدرّون عليها .

وأن تاريخ القرية وطرفها إن لم يسجله المعاشون فسيكون من المنسيات المهملات .

وإن هذا لحق فلطالما غلبتني عاميتي بألفاظ من بدهياتي في مدلوها وواقعها البيئي، وكذا بأولادي أو من هو في سنهم يستعيدني الكلام بمرادفه من الفصيح أو لهجة العصر ليفقه عني .

ولا عجب
عاماً .

وهذا أمر
بقي النمط ث
وإنما هنا
والبلدان .

ولكن كل
بزيه ومأكله و
وهكذا ال
وإذا وجد

بعد عقود كال
لقد نشأت

الأشياخ رحمة
السن ويتخلو
ومنذ تميز

والدي من أش
يحيان رحمة ال
وكانا من رواة
العصر من الما
بإعادته إلى بي

(١) سمي سوف
الخطب، لا

ولا عجب في هذا مادامت حياتنا تغيرت رأساً على عقب خلال أربعين عاماً.

وهذا أمر لم يألّفه تاريخنا، فمنذ تحضر العرب بعد الفتوحات الإسلامية بقي النمط ثابتاً في الزي والمأكل والمشرب واللغة.

وإنما هناك طواهر أدبية، واختلافات حسب اختلاف الشعوب والبلدان.

ولكن كل نمط ثابت في مكانه، فالريفي في مصر هو الريفي منذ الفتح بزيه ومأكله ومركبه وعموم لهجته.

وهكذا الريفي في الشام.

وإذا وجد اختلاف في ظاهرة ما فإنها يكون بالتدريج لا يلحظ إلا بتكرره بعد عقود كالظل لا يلحظ إلا بعد دقائق وهو يتحرك بالثواني.

لقد نشأت في بيئة عامية نجدية، وفي مقياس النجابه لدى آبائنا العوام الأشياخ رحمة الله عليهم أن يجالس الصغير منذ تمييزه أصدقاء أبيه من كبار السن ويتخلق بهم ويعيش عقليتهم.

ومنذ تمييزي وفي الصغر المبكر جداً كان سمري وجلوسي مع أصدقاء والدي من أشياخ ينيف واحدهم على سبعين عاماً، وقد تتلمذت على ابني يحيان رحمة الله عليهما في آخر حياتهما عشر سنوات ونيف، وكانا كفيفين، وكانا من رواة الأشعار والأخبار، وكنت آخذ بيد محمد بن يحيان بعد صلاة العصر من الماقفة أو السميدة^(١)، فنظل في سمر إلى وسط الليل حيث أقوم بإعادته إلى بيته في (الطريف) من حارات شقراء.

(١) سمي سوق الجلب بشقراء (السوق الكبير) سُمِّدَة لكثرة ما يتبقى به من بعر الإبل والغنم وحطام الحطب، لأنه من كبار الأسواق بنجد آنذاك، والتجارة فيه على قدم وساق.

وأحياناً أصلي معه العشاء في مسجد الطريف فيقوم ويصلي صلاة الوتر على عجل كصلاة أبي العلاء المعري عندما كاد يدركه (الحنشل) من كل طويل الرمح نساع ! .

فإذا سلم التسليمة الأولى - كتسليمة المالكية - حصبني ببطحاء المسجد لأخذ بيده ثم يكمل التسليمة الثانية، وربما تحوّل مسجد الطريف إلى ضحك وتنكيت.

وعندما أقلبه إلى منزله وسط الليل يكون في الطريق مستنداً على الجدار الشاعر الشعبي مبلش فيحصل تنكيت ومهارشات محبة .

وقد أفدت من ابن يحيان وغيره أسفاراً من الشعر العامي وتاريخ الجزيرة كنت أكتبها على القنديل المكشوف (أبو دنان) وأحياناً على الفئر.

وقد ضاعت هذه الأسفار جميعها، فمنها أربع كراريس باسم الأصول والفروع سلمتها للوالد الشيخ عبدالله بن خميس أول تعيينه رئيساً عاماً للقضاء وكان خطي سقيماً ملحوناً فاستغرب لما رأي أول مرة رأي العين، وقال: كنت أظنك من أبناء الستين !! .

وهذا أثر من آثار مجالسة الصغير للأشياخ.

ولقيت منه جزاءه الله خيراً الإعجاب والتشجيع إلا فيما كتبه عن الأصول والفروع .

ومنها سفر بعنوان (بين كميث والملحاء) ضاع بين مكتب سمو الأمير سعود بن جلوي رحمه الله ومكتب شيخنا حمد الجاسر عند تركه للجريدة وسفره إلى بيروت .

وبقية الأسفار وهي الأهم والأكثر ضاعت قبل ذلك بزمان مبكر أحرقتها بيدي إرضاء لوالدي عمر رحمه الله حيث أثر عليه شيخنا صالح بن غصون

متع الله بحياته
لو كان هو
في الرواية أو
العامية فزهدر
ما أضعته .

أفنيّت مقبيل
شعر النبط
هزل من المدا
ما تلك إلا
حسب الأري
حتى تغني
ما راعه شا
لكنه رحم
طوراً يسلط
حمم من التعني
ما ثم غير ا
قلل من الما

وعانيت في
ما بين السنة
مرة كان م
شعراء العامية
المملكة .

متع الله بحياته عندما كان قاضياً بشقراء وأستاذاً لي بالمعهد العلمي .
لو كان هؤلاء الأشياخ أئمة في اللغة أو الحديث لكنت أصمعي زماني
في الرواية أو كنت من كبار المحدثين ، ولكن تتلمذي عليهم إنما هو في
العامية فزهدت في روايتي العريضة الوسيعة وفرطت فيها وعز علي استرجاع
ما أضعته .

أفنيْتُ مقبِل الحياة تلاعباً
شعر النبط يشوقني ما صاغه
هزل من الملحون يلهي لغوه
ما تلك إلا بيئة عايشتها
حسب الأريب إذا تفيأ منشأ
حتى تغنى بالملامة ناصح
ما راعه شدوي بذاك مرتلاً
لكنه رحم اليراعة والحجا
طوراً يسلط بالنصيحة مشفقاً
همُّ من التعنيف يغني بعضها
ما ثم غير النار أشبع جوعها
قلُّ من المأثور يعنت جمعه

ووعيت لهواً لم يفد عقباله
راكانه العجمي أو هذاله
ويصد عن غرر البيان حثاله
وتراث شعب يجتبي زجاله
أن لا يبح بامتداه هذاله
شيخ تمكن في الحشا إجلاله
عن ظهر قلب ما تحشرج باله
أن لا يجند في المجال زماله
وتحيش طوراً بالأسى أمثاله
والغر يعجز في الملام حياله
بتراث جيل يُزدرئ مواله
ويهضي مع رسمه إملاله

وعانيت في قريتي ثلاث فوادح من الظلم الاجتماعي صادفتني في دراستي
ما بين السنة الأولى الابتدائية إلى السنة السادسة .

مرة كان مديرنا يدرسنا في السنة الأولى ، وكان له معنا زميل ابن عم من
شعراء العامية الفحول وهو الآن يحمل شهادة عالية في الجغرافية نالها خارج
المملكة .

وقد ضاع له قلم ثمين اسمه «تيكو» وإنني لشديد الحنين إلى هذا النوع من الأقلام إلا أنه عُدِمَ فلا يوجد .
فرأى المدير غَلَقَ الفصل والتفتيش في الأدراج ، وذلك بعد تأثيث المدارس بالمقاعد الخشبية .

وكنت صبيّاً ذكي العقل ، ولكنني كنت ساذج النية ، وبجني بدوي قَعْدِي من أطراف شقراء لا أبين اسمه سامحه الله .
فلما قرب التفتيش من صفنا غمزني البدوي محمد وقال لي : «عان القلم تحت رجلك» .

فأخذته فرحاً بسداجة طفل وركضت به إلى المدير مبشراً بوجود القلم .
فأخرجني إلى ساحة المدرسة فوراً وأبرم خِيَّةَ الفلكة في رجلي وضربني ضرباً مبرحاً دون أن يسمع مني حجة ، وقد التف حول العقوبة جميع الطلاب من مختلف الفصول ، فكان يوماً مشهوداً منذ أربعين عاماً^(١) لا أنساه ولن أنساه ما حييت لما فيه من ظلم شنيع .
والثانية كان في الشارع أمام بيتنا لمة من الصبية فيهم ابن عم للمدير ، فلما مر أحد المدرسين نبزوه بلقبه وصاحوا به .

وكان أكثرهم حماساً في النبز والتصفيق ابن عم المدير ، وما كان لي أدنى دور وإنما كنت على عتبة بابي أشاهدهم ولم اختلط بهم قط .
وفُتِّحت المدرسة بعد العطلة ، وبُوشِرت الدراسة بفرشي في الفلكة دون اللجنة الحقيقيين .

والمرة الثالثة كنت في الصف السادس ، وكنت الشاويش الذي يوكل إليه

(١) كتبت هذه التبريحة عام ١٤٠٥ هـ ، تقريباً .

هدوء الصف ،
رأني أول الصف
ضرباً مبرحاً ،
شاويشاً .

أذكر هذه ا
فأبيحه وإن كا
وقبل الدرا
عبدالعزیز بن
العمامة ويخض
بيده ، ويملاً
والصلاة ويحف
وكان شريف
ليس حقه

ويضحون له و
لأنهم شركاؤهم
أتذكر هذ

الأسى حسرة
حنطي رحمه الله
دعاء وأمثاله

هدوء الصف، فدخل مديرنا مدرساً وكان الطلاب عصافير في سدره، فلما رأي أول الصف وعلم أنني الشاويش اقتلعتني من مقعدي وضربني في يدي ضرباً مبرحاً، واستدعى ابن عم له كان بليداً جداً آخر الصف، وجعله شاويشاً.

أذكر هذه الفوادح فأشرق بريقي كراهة للظلم، ولعلي أنسى هذه الآلام فأبيحه وإن كان سوء النية منه فيهن واضحاً.

وقبل الدراسة المنهجية كنت أدرس في المدرسة «الكتاتيب» لدى الشيخ عبدالعزيز بن حنطي رحمه الله وكان رجلاً كأنه من خيار التابعين يكور العمامة ويخضب بالحناء ويقلم أظفارنا بيده، ويخيط شروح ثيابنا وجيوبنا بيده، ويملا الجيوب بيده من الحبوب وما يُفرح الصغار ويعلمنا الوضوء والصلاة ويحفظنا القرآن، ويتعهدنا في المدرسة والبيت والمجلس.

وكان شريف النسب في قومه وجيهاً عند كل مسلم عرفه قائماً بالحسبة. ليس حقه علي وحدي، بل حقه على جميع الأجيال التي درسها يدعون ويضحون له ويشوبون له بعض الأعمال، وللمشايع حق بعد حق الوالدين لأنهم شركاؤهما في التربية.

أتذكر هذين النموذجين من المدرسين في حياتي العلمية فيأكل قلبي الأسى حسرة على المقصر لضعف نفسه البشرية، ولوعة فقد على أمثال ابن حنطي رحمه الله لندرة أمثاله في هذه العصور، ولتقصيري في واجبه علي من دعاء وأمثاله لما له من حق عظيم على جميع أبناء القرية.

تباريح التطلع إلى خارج شقراء :

كنت طالباً بمعهد شقراء العلمي وكنت أكتب في الرياض سماحة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم رحمه الله .

وكان في أشد العجب من أمري يصل إليه مني كلام بليغ ومضمون يدل على عمق ثقافة إلا أن خطي رديء ، ولغتي ملحونة ، والرسم على غير قاعدة ، وقد حُرم شكل خطي من أدنى مسحة من مسحات الجمال .

فكان يجاوبني بعد عشر رسائل برسالة واحدة مشجعاً ، وكان ساعي البريد في شقراء إذا سلمني رسالة سماحة الشيخ ينظر إلي شزراً ولسان حاله يقول : «من هذا الطفل التفل الذي يكتبه سماحة الشيخ عبداللطيف ؟!» .

وأرسلت له مرة قصيدة عن طياري العرب لا أذكر منها إلا قولي :

ماضى العروبة ما أجل ذكراه
وعباس فرناس بذا حذق لكنه خانت به زمكاه

وأظنها نشرت بإحدى جريدتين أنشأتها في المعهد هما «نجد» و «المؤتمر»
ولا أدري ماذا فعل الله بهما .

وكان شعارهما : «اقرأ مجاناً» .

وكنت أرتاد أستاذي الشاعر الطُّلعة عبدالله بن عبدالرحمن بن إدريس رحمه الله ، وكان يتعهد لغتي وأوزاني .

وقد أعجب سماحة الشيخ عبداللطيف غاية العجب بهذه القصيدة ولم يدر أنها بترميم أستاذي ابن إدريس رحمه الله .

ثم بعثت له بعدها بملحمة رباعية لا أذكر منها حرفاً واحداً لأنني مزقتها كتاب جامع اله منذ راجعت الشيخ حولها .

فقد أعاده

ولغة ومضموناً

وفي العط

صلاتي الظهر

من بعد ونام

هذه عادة

وكان للوال

الحضارية بعد

وهناك ذكر

أما الأولى :

الصباح الباكر

وإلى الآن

وأما الثانية :

رائحة وطعم

أعهد لها اليوم .

ولقد كثرت

تقشف السلف

على مص تمر

في نجد منذ

تمرتان .

ومن أراد الذ

كتاب جامع اله

فقد أعادها بخطاب من نصه : «الدين النصيحة والقصيدة مهلهلة وزناً ولغة ومضموناً، وليست في مستوى ما أطلعتني عليه من شعرك».

وفي العطلة زرتة بصحبة والدي . . . كنا ننطلق من شقراء ما بين صلاتي الظهر والعصر ونقبل على الرياض قبيل غلس الفجر فتسحرنا أنواره من بعد وننام في المصانع قليلاً ثم ندخل الرياض طلوع الشمس . هذه عادة من يتردد بين الرياض وشقراء .

وكان للوالد معارف في المربع، وكان المربع يومها يحفل بالأعجاء الحضارية بعد الملك عبدالعزيز رحمه الله وقبل تطور الرياض . وهناك ذكريان طعمهما في سمعني ولساني :

أما الأولى : فصوت عبد الباسط عبدالصمد من راديوات قيلبس يرن في الصباح الباكر من خلال منافذ البيوت في المربع .

وإلى الآن عجزت أن أستعيد حلاوة ذلك الصوت .

وأما الثانية : فالقول وخبز الفران لآعهد لي به في قريتي شقراء، وكان له رائحة وطعم ومنظر، وكل ذلك يسيل اللعاب، وكل تلك الحلاوة لا أعهد لها اليوم .

ولقد كثرت النعم ففقدنا طعمها ، ومتعتنا اليوم في الزهد واستحياء تقشف السلف، فقد كان ثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم يتعاقبون على مص ثمرة، وكان طعام البخاري لوزتان في اليوم، وكان أهل البيت في نجد منذ نصف قرن يقسم لهم في اليوم للصغير ثمرة، وللكبير العامل تمرتان .

ومن أراد النعيم الروحي فليراجع شرح الحديث السابع والأربعين من كتاب جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب، وهو: «ما ملأ ابن آدم

وعاء شراً من بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة
فثلث لطعامه وثلث لشرايه، وثلث لنفسه».

زرت مع والدي سماحة الشيخ عبداللطيف متأبطاً ملحمتي التي أعادها
إلى مشفوعة بعبارة: «الدين النصيحة... الخ».

وكنت أريد إقناعه بأن قصيدتي غير مهلهلة الوزن، والشيخ يهز رأسه
ويوجهني للعلم الشرعي ويطري تحصيلي العلمي وما أراد إلا تشجيعي.
وكان رحمه الله ذا ذائقة فنية فذة، وذا أذن موسيقية، وذا شعر سلس
ذكي المضمون إضافة إلى جلاله علمه في العقيدة والفرائض وعلوم الشريعة
وعلوم الآلة كاللغة.

وله قصيدة أظنها تقارب ثلاث مئة بيت في الرد على فتى الحجاز وهي
من أعاجيب هذا الشيخ الجليل، وعلمي بها مخطوطة بجامعة الملك
سعود^(١).

لم أكن يومها أتقن علم العروض بداهة إلا ما قومه لي شيخي ابن
إدريس رحمه الله أو قطعته على أعواد المساطر.

وكان شيخي عبدالله ابن خميس يشبطني عن الشعر لكثرة ما سمعت
يعيب الوزن بأعواد المساطر.

وملحمتي تلك لم أزنها على بحر من بحور الخليل المعروفة، وإنما كنت
ألحنها على لحن شعبي معروف عند العوام اسمه «النقازي» ومن أوزانه قولاً
الراقصه:

حنا بنات الصلب يازين حنانا

(١) صورتها بأخرة من فضيلة الشيخ سعد الرويشد، وعلمت أن الأستاذ محمد الشاوي يهوها للطبع.

تقطعه فتجده على وزن :

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِل

وهكذا الهجيني تنظم على لحنه مثل :

يا وجودي عليهم وجد من فاطر له غره النوم عنها في فروع المظامي
تقطعه فتجد وزنه :

فاعِلن فاعِلاتِن فاعِلن فاعِلاتِن فاعِلن فاعِلاتِن
ومثله لحن المسحوب مثل :

يا جر قلبي جر إلى ادنى الغصون وغصون سدر جره السيل جرا
تلحنه فتجد وزنه :

مستفعِلن مستفعِلن فاعِلاتِن مستفعِلن مستفعِلن فاعِلاتِن
ومثله اللحن الشيباني مثل :

ضربني ضربة منها العطب وانا ابن شيبان
ونجاني ولي العرش ولاجي في اماريه

تلحنه فتجد وزنه هكذا :

مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن

مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن

ولما حذف من العروض بقي عندي طبع التلحين فكنت أختار للبحر
وزناً .

ولم يهني ربي حلاوة صوت ، وما كنت أوفق للحن جيد دائماً ، فيجتمع
صوت يؤذي سواجع الحمام ، وحن كتكسير النوى ، ولكنه على أي حال
يضبط لي الوزن ، فإذا عدت للتقطيع على البحر وجدت في النادر خبلاً
يسيراً فأقمته .

ألححت على الشيخ أن أقدم له البرهان على أن ملحمتي غير مختلفة الوزن
فغنيت بها على لحن النقازي فاحتسب سماحة الشيخ للأجر وأصغى على
مضض وهو يخفي ضحكته، ولكنني أستبينه من اهتزاز رأسه.
فأقنعني رحمه الله أن الشعر العربي الفصيح يبقى نطقه ولحنه صحيحاً
فصيحاً، أما تلك الملحمة فلحنها مستقيم ونطقها عامي، وأوصاني بأن
أحفظ عدداً من روائع قصائد العرب حتى يكون الوزن عندي ملكة
وسجية على أن لا يصدني ذلك عن العلم الشرعي.
وما زال رحمه الله إلى أن لقي ربه أباً برأ كريماً بصاحب هذه السطور
بعلمه وجاهه وماله.

التباريح في قطر :

أسلفت شيئاً عن إجداب المكتبات التجارية في الرياض، وقلة الكتب
العلمية التي توزع مجاناً، ولا توزع إلا على من عُرفوا من المشايخ وشبههم.
وكنت أتعامل مع مطابع حيدر آباد الدكن وغيرها بواسطة أحد الكتبيين
بالرياض، وقد أرهقني هذا التعامل كثيراً من الناحية المادية لقلة ذات اليد.
ورأيت في بيوت الوجهاء كتباً نادرة نفيسة توزع مجاناً وتطبع في قطر.
رأيت من ذلك نسخة أنيقة مجلدة تجليداً فاخراً من ديوان الأخطل.
ورأيت مجاميع شعرية نفيسة لابن دريهم والشيخ على آل ثاني.
ورأيت موسوعة مطالب أولي النهي وهي مجموعة فاخرة في الفقه
الحنبلي.

وعلمت أن من شهد له بالعلم والفضل يعطى من جميع الكتب مع
إكرام نقدي، ورغبني شيخني سماحة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم في

الحسينين، وكتب معي خطابين لحاكم قطر الأسبق الشيخ علي آل ثاني بعد تقاعده، وخطاباً لسماحة الشيخ محمد بن مانع.

وسلمني الرسالتين مفتوحتين لأقرأهما.

وكتب معي الشيخ عبدالله ابن خميس وكان مديراً عاماً للرئاسة القضاة خطابين للشيخ ابن مانع وعبدالبديع صقر.

وكل الكتب تعريف بي وثناء علي وتزكية.

فسافرت أنا والوالد براً وقدمنا قبيل الظهر، ومرت أحداث مثيرة عجيبة لا أذيعها، لأنها تسيء إلى بعض أحابي.

واضطررنا إلى النزول في الضيافة العامة وكانت حوشاً بوسطه بركة ماء للشرب يغرف منها بعلبة حديد قد صدئت، وجدران البركة مطلية بالسواد والخضرة من فضلات الماء الأسن المتغير، ويحيط بالبركة غرف من الطين يطير غبارها من أدنى حركة.

وكان والدي يرفع نفسه ويخفضها من الغضب، وكان يود لو نزلنا في فندق أو بحث عمن عساه يعرفه من أسر جماعته أهل شقراء، أو أهل الوشم، أو أهل نجد.

وكثيراً ما شتم الغراب حيث يدل إلى الجيف، وهو يعنيني.

وكنا نعاني جوعاً وسهراً ومع هذا لم تشتق نفسه رحمه الله لرطب أو يابس، واقصعراً في زاوية أمام باب الغرفة يفكر في الخلاص.

ودخل علينا جار لنا من عمان، وكان النوم في جيبه فاستلقى وأحدث شخيراً كطقطقة الماطور، فنبزه الوالد بأربعة وأقعدته، واستعفاه من الرفقة.

وقال: ما أخبار شيخ العمور، وهو وافد على الأمير فيصل بن عبدالعزيز.

فقال الوالد: نحن قوم مساكين لا نأكل ولا نتغدى مع الأمير فيصل، ولا نعرف العمور فضلاً عن شيخها، ولا نحب أن يجمعنا مكان واحد في هذه الغرفة.

فخرج العمري يجر أذياله، وبقيت في هم وغم من أجل ظروف الوالد وهو يقرعني ويقرع طلب العلم الذي أحوجني إلى إذلاله وإحراجة. وصمم على أن نعود فوراً إلى الدمام، أو أذهب لأسأل عن أحد من أهل شقراء.

فقبلت أنفه وجبينه والتمست منه أن يصبر حتى أذان العصر كي نقابل الشيخ علياً في قصره بالريان، ووعدته بأن ينزل في أفخم ضيافة، أو يعود للدمام معزاً كريماً، فقبل على مضض، ويكاد يشك في جدوى لياقتي ومظهري أن تكون سبباً في تبديل حال بحال.

وكانت العقبى جميلة حلوة لا يزال طعمها في مذاقي وإن كان لها ما يقرب من ثلاثين عاماً^(١).

أقلقني وضع والدي في غريفة الضيافة العامة، وتحسبت لروعة الموقف عند مقابلة الشيخ علي آل ثاني، وحاوت أن أنظم قصيدة في مدحه وشرح حالنا، ولكن ثقل علي الشعر جداً لشدة القلق ولقصر ما بين الظهر والعصر، وتذكرت قصيدة مدحت بها سماحة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم ألقيتها من نادي معهد شقراء لما زاره، ونلت عليها جائزة وتقدير أذكر منها:

(١) كتبت هذه التبريجة في حدود عام ١٤٠٩ هـ.

طافت بنا موجة فاهتز نادينا واشتاق للسعد قاصينا ودانينا
يا ابن الأطايب أن تزكوفلا عجب قد كنت من معشر كانوا ميامينا
والشيء من نبتة ما فيه من عجب وكل ريحانة تؤتي رياحينا
يا ابن الأطايب ما محص لكم همما بيان شعري وإن كنت ابن زويدنا
وكانت قرابة أربعين بيتاً فاصطفيت منها اثني عشر بيتاً قلبتهما مدحاً في
الشيخ علي بن ثاني، وأضفت ما يقتضيه السياق من ترميم كقولي:

تلك الحدود حدود الله لا جنف ولا ارتياب ولا طغوى مغالينا
وكانت هذه القصيدة حرزاً مباركاً أضحكت الشيخ عبداللطيف في
الرياض، وأضحكت والدي في الدوحة أضحك الله وجوهها في الجنة.

فلما فرغت من تبيض القصيدة أهبت بوالدي للتأهب لنلحق صلاة
العصر في قصر الريان، فتطهرنا وتطيننا ولبسنا فاخر الثياب واتجهنا في سيارة
الأجرة إلى مسجد الشيخ علي بالريان وبعد صلاة العصر خرج من المسجد
إلى عائلته وخرجنا من الباب الآخر إلى مجلسه في دكة عالية من عروق
الطين فحضر الشيخ وافتتح القارئء بالقراءة في البداية والنهاية على ما
أظن، وكان يقرأ عن بدء الخلق.

وبعد الدرس سلمته خطاب الشيخ عبداللطيف بظرفه مفتوحاً،
وعرفت بوالدي بعد أن سلم على سروات القوم بأنه الشيخ عمر ابن
عقيل، وكان رحمه الله شيخاً في السن جميل المنظر والمظهر يجالس المشايخ
ويتقن أحكام الشرع فيما نعم به من عبادات ومعاملات على مذهب الإمام
أحمد بن حنبل، وكان يتهجد في الكتب، ويستحضر سير الصحابة
ونصوص الرقائق والنظم الوعظي.

ولم يرتح الشيخ علي لتسليم الخطاب مفتوحاً، واستشهد بقول الله
تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾.

وظللت أجادله في أن الرقم يعني الختم أو الإغلاق^(١)، وكان الوالد
يَحْمَارُ ويصفار ويختلس الغرات فيغمز بعينه بها معناه: اترك الجدل ووافق
الشيخ.

وظللت في الجدل حتى أنهاه الشيخ فأخذ الكتاب وقال: مقبول.

فأخرجت القصيدة وقلت عندي مديحة في سموكم، فقال:
تَشْعُرُ بعد !؟

فنعمت له وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم.

فرجرتني قائلاً: تسمي في الشعر؟

فقلت: النهي ليس على إطلاقه، وإنما كره العلماء ذلك في الهجاء
والنسيب.

أما الآن فموقفي شريف في مدح حاكم جواد ورجل علم.
وإذا كان الموقف شريفاً استحبت التسمية.

وكان عن يمينه عبدالله درويش فخرو وقاسم درويش فخرو، وكان
قاسم يلاحقني بطرفه مستحسناً موقفي.

وكان الوالد يقطع أشباه الشيخ الحاكم ومن حوله يقرأ الرضى في
ملاحظهم فتنبلج أساريه، وأشرق النور والدم في وجهه بعد أعباء الضيافة
العامة.

وصوب الشيخ علي بن ثاني نظره، وأصغى إلي غاية الإصغاء، وعجب
أشد العجب من رباطة جأشي أمامه، ومجادلتي له في رقم الكتاب،
والتسمية في الشعر.

(١) وجدته بعد المراجعة بمعنى الختم في لغة حمير.

ولا يستحضر الجواب في ذلك إلا عالم له دربة في المراجعة .
أما أنا فكنت شاباً أرسل شعر وجهي ، إلا أنهن شعيرات قليلة وغير
منتظمات .

وكنت يومها ألبس الثوب إلى نصف الساق ، وعباءتي لا تكاد تصل
الكعب .

ولم أكن ألبس عقلاً ، أو تخاط لي الثياب علي قياسي ، وإنما ألبسها
جاهزة ، وإنما كنت أحرص على النظافة واللباس الأبيض ، وكننت نحيفاً
جداً مشرباً بصفرة لأنني أرهق نفسي بالسهر والقراءة ، ولا أحرص على
تنويع الأكل وأطاييه كما كنت أفعل فيما بعد .

تلوت قصيدتي التي قلبتها من مدح سماحة الشيخ عبداللطيف إلى سمو
الشيخ علي ومع أن إلقائي للشعر كان رديئاً فقد وفقت في الإلقاء تلك
اللحظة ، وكان الشيخ يهتز طرباً ، وكان الشيخ قاسم درويش فخرو يطلب
مني إعادة بعض الأبيات .

ورأيت والدي الذي كان يتمزق حسرة وحنقاً في غرفة الضيافة تتألق
نظارته ، ويوزع نظراته وضحكاته على الحضور معلناً فرحه بشجاعة موقفي
أولاً ، مشعراً ثانية الحضور بأن المغرّد ابنه ، وذلك بلسان الحال .
وكان يقول لي في غرفة الضيافة العامة : « ليت أمك يوم ولدتك فعلت
كيت !! » .

فسبحان مقلب القلوب ومبدل الأحوال .
أخذ الشيخ قصيدتي وقرأها وأنا لا أزال واقفاً ، ثمناولها قاسم درويش ،
ثم قرأ خطاب الشيخ عبداللطيف ثانية وسألني : متى حضرتم ؟ .
فقلت : الآن .

جبة سقا
وقد بين
الثاني.

التباريح

قال أبو
بما رغبي
القناع) وه
أشرف على
حتى توثب
فقلت:

وصاح
التربية يأخ
فمن ان
فنية لا سلو
فأصدر
من الشبيبة
(الرومانسي
فقادوني
شاهدي، و
وكان أم
وتلك عدوة

وأوماً إلي قاسم : أن أجلس .
ورأيت الشيخ علي يشير بيده وينادي : يا صقر .
فجاء صقر بلباس الأخوياء المسلحين وهامسه قليلاً ، ثم تحرك وتحرك
موكبه .

وبأقصر من كر الطرف شق الطريق فصعدت نحونا سيارة صغيرة
فاخرة ، وعلا النداء :

يا شيخ عمر . . يا أستاذ محمد . . تفضلاً .
وفتحت لنا الأبواب ، وصعدنا ورفرفت بنا السيارة الوثيرة المريحة حتى
أشرفنا على عمارة شاهقة كلها أبواب زجاج . . أعني نوافذها .
وأصعدنا إلى أحد الأدوار العالية بجوار دبي بن لعيان شيخ من شيوخ
سنجارة .

وكانت مضيئة فخمة راقية في أثائها وطعامها ونزلائها .
وكان الوالد رحمه الله يتمطق دائماً بذكریات تلك الأيام وما لقيه من
حفاوة وإكرام .

وكان رحمه الله ينسب كل فضل بعد الله في هذه الرحلة إلى نبوعي
وشجاعتي ، وكان يثني على العلم والتعلم الذي أوصلني إلى هذا الموقف
الكريم .

وكان قبل ذلك يهجو المدارس والتعليم عندما زارنا رجل من العمور في
غريفة الضيافة العامة .

وصار دبي يبادلنا الزيارة ، وكنا نوحّد ضيافتنا ، ورويت عنه كثيراً من
الشعر العامي والأخبار ، ومع الأسف لم يبق في الذاكرة غير قصيدة عبدالله
بن رشيد :

جبة سقاك من المراهيش رعاد وما عقبك خشم أم سمنان يزيه
وقد بينت ذلك عند روايتي للقصيدة في كتابي ديوان الشعر العامي بالجزء
الثاني.

التباريح في الرياض :

قال أبو عبد الرحمن : خرجت من قريتي شقراء عام ١٣٨٢ هـ وأنا معتر
بها رغبي فيه المعلمون من قصائد تبدأ بـ (قفانبك) وتنتهي - (ريم على
القاع) وصحبت مشايخ رغبوني في رومانسية الشعر الحديث فما كدت
أشرف على (بحيرة كومو) و (الأطلال) وصلوات محمود حسن إسماعيل
حتى توثب قلبي وشفقت جوانحي !

فقلت : هذه والله هي النعمة الأدبية ، ولقد أفلس الغافلون النائمون .
وصاحب ذلك شدة حَجَر علي في القرية ، وكان والذي رحمه الله جاد
التربية يأخذ بالحُجَز.

فمن انغمس في الرومانسية بعد الحجر والحرمان فمضمون له مراهقة
فنية لا سلوكية .

فأصدرت (نظرات لاهية) فنالت استحساناً إلى حين ثم صاح عليّ الجو
من الشبية وكلهم يقول : من هذا الذي يتنفس من أجواء الانغلاق الذاتي
(الرومانسي) في عصر الاستلاب .

فقادوني هداهم الله وكنت في هذه سهل المقادة إلى شيء يبهج في غياب
شاهدي ، وهو الأدب الحديث .

وكان أمضُ شيء في حياتي أن أسمع الناس يتحدثون بشيء لا أعرفه ،
وتلك عدوى من الإمام ابن حزم .

فتطلبت الشعر الحديث ونفريه طبعي أولاً ، ولو لم تكن بدايتي بشعر أحد
معطي حجازي والسياب لكنت عنه أشرد من ريم الفلا ! .
فاكتشفت مجهولاً رحباً كان من أعظم النعم التي تشغل حيزاً في ثقافتي .
وعرفت للقصيدة الحديثة فضلها وجماليتها وفكرها وتقنياتها دون أن أقع
فريسة لعلماني أو طائفي .
وجزى الله الشباب خيراً ، فقد رحوا شيبتي بهذا التحويل الذي كان في
بدايته قسرياً .

وحقي عليهم بعد هذا أن لا يحرمونا المتعة بما هو من تراثنا أو من خلقة
تكويننا .

فإن الفكر الأصيل والوجدان الصادق يتسع لكل خير وحق وجمال وإن
كان من العصر الحجري أو من بلاد الواقع واق .

وأقول لهؤلاء الأحباب ثانية : والله لو أوتيت عقل (نيوتن) فلن أستغني
عن عبق الرومانسية ، لأنني شرقي عربي ، وكل عربي بكاء بفطرته له عين
تنظر وكبد تتفتت وقلب يرق ويخشع .

وكل عربي صبب تفضحه عيونه !! .

ومما علمنيه (ورد زورث) ولم أذكره في كتابي قوله :

[نبضة واحدة من غابة ربيعية .

كفيلة بأن تعلمنا عن الإنسان .

وعن الشر الأخلاقي وعن الخير .

أضعاف ما يستطيع أن يعلمنا كل الحكماء .

كفاكم علوماً وفنوناً .

أضربوا صفحاً عن هذه الأوراق العتيقة .

وأقبلوا ومعكم قلوبكم .

التي ترى وتتلقى] .

إلا أنني لست مع ورد زورث في الأسواق العتيقة، لأن قيم الأوراق العتيقة تتحول من التقرير العلمي إلى الإيحاء العلمي في الأدب الرومانسي .

وهكذا علوم الحكماء .

وكل عمل إبداعي مُلْكُ الإثارة فهو إحساس فكري .

ولي قصة مع تهمة الأدب بأحد المساجد، وهو مسجد الأمير محمد بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود رحمه الله، فمنذ سنوات بادرت وتناولت المصحف لأقرأ ما تيسر قبل الإقامة .

وكان عن يميني شاب فاضل يتنفل .

فسلمت على فاضل آخر عن يساري، ولكنه شغلني عن التلاوة إلى أن حان وقت الإقامة منذ حييته تحية الإسلام كعادة المتنفل إذا فرغ .

وكان الرجل طالب علم إلى حد ما، وزيه زي القروي، وعنده خفة روح ودعابة تغطي بعض عيوبه من الفضول والوقوع في أحوال المساتير !! .

أشار إلى القائم عن يميني فقال :

أتعرف هذا ؟

فلما تأملته قلت : لا والله .

فقال لي : هذا يسمونه أبو عبدالرحمن الظاهري من أهل شقراء .

ثم حدثني عن أشياء من جموحه وتورطه في الفن، ورقائق الأدب، وملطفات السمر !! .

وخيل إلي أنني لا أعرفه، ولكنني كنت متشوقاً إلى المزيد من أخباره،
لأنني لمحت من الأخبار المثالة عنه أنه على جانب من شفافية الظرف وخفة
الروح، وأنه رقيق الطبع منسجم مع نفسه وفكره وعواطفه الأدبية لا
السلوكية !! .

إنه يمثل نسخة مني .

وكما تجعل طبق الملوك محمولاً عليه وتعطف عليه عشرات المحمولات
فتقول: الطبق ذهبي نظيف وضئىء مستدير زكي الرائحة . . . الخ . . .
الخ: كانت محمولات صاحبي عن الظاهري .

فهذا الظاهري نافورة فواحة تتألق بالعباس بن الأحنف، وزرياب،
وإبراهيم ناجي، وسائر الموهبين الذين يجهبشون للتوباد !! .

ورغم أن نفسي تجيش بمئة سؤال وسؤال إلا أنني لذت بالصمت وشدة
الإصغاء، لأنني أخشى أن يندد عني شاردة من تولهات الظاهري، وكنت
متأدياً سَمِيعاً بخلاف مألوف الشرقي .

فلقد سمعت معالي الوالد الدكتور عبدالعزيز الخويطر يقارن بين شرقي
وغربي، فالشرقي يمنح محدثه شيئاً قليلاً من الإصغاء، لأنه مشغول بإعداد
الاعتراض عليه .

أما الإنجليزي فبارد الطبع فيصغي كامل الإصغاء ليفهم ثم يعارض
إن وجد سبيلاً للمعارضة بالمعنية وحسن تلتطف .

ومازلت أستزيد محدثي في المسجد عن أخبار الظريف حتى قال:

«ولكن الرجل هداه الله واتجه إلى ربه، فكان لا يفارق هذا المسجد» .

فقلت له: تاب عن الأدب والظرف ؟ ! .

فقال: يا رجال علوم مصلحة ! .

ولم أبين له أن القائم عن يميني ليس هو أبا عبد الرحمن ، وأنه مظلوم .
ولقد حرصت على مقابلة محدثي بعد ذلك فعز اللقاء ، فلا أدري أسماء
لحسته أم أرض بلعته .

ولا أدري هل أستطيع تحقيق أشباهه لو رأيته .
لقد تجاوزني أديبا يعشق الجمال الفني وظرف الأذكاء إلى مطلق ظريف
قليل عنه أكبر مما قال مالك في الجريال !! .

ولست أفرح بهجائهم لي وغيتهم إياي لأحبط صالح أعمالهم ، بل أدعو
الله لهم من سويداء القلب أن يسامحهم ويبيحهم .

وإنما أرجو من الله العوض في مسامحتي لهم أن يغفر ذنوبي ويستريح عيوبي
ولا يفضحها في موقف يتحقق فيه المعنى الحقيقي للتغابن وألم الفضيحة
ونعمة الستر والعفو .

وكثيرون يحسدونني على حزميتي ، ولكنهم يهجونني بأني حزمي !! .

وحوقل الأشياخ واسترجعوا لما أعلنت ظاهريتي عام ١٣٨٧ هـ .

وجعلت كلمة «الظاهري» تملأ فراغ الاسم الذي يقتضي آخره ياء
النسب .

ولعله أحزنهم أن هذا العلم الحزمي الذي تخشع له القلوب وتدعن له
العقول لم يكن شيئاً مذكوراً في بلاد نجد ، وإنما كان النقل عن ابن حزم
قبل طبع كتبه في بلادني نقلاً بالواسطة ليس نقلاً مباشراً .

وأعجب من ذلك أنني في سني الطلب نخلت مدينتي شقراء فلم أجد
المحل عند غير آل سالم ، ولم أجد الإحكام في غير مكتبة المعهد العلمي .

وكان الشيخ شويل رحمه الله من المهتمين بعلم ابن حزم في الحجاز ، وقد

أخبرني الشيخ أبو تراب الظاهري أن تعليقاته على الفصل لو وجدت
وجردت لكانت كتاباً حفيلاً ! .

وكان شويل على صلة بساحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله .
وسمعت أن شويلاً رحمه الله كان يقول: اجعلوا المحلى حجاباً بينكم
وبين النار.

ولما حذقت من علم ابن حزم خيراً كثيراً وتضحكت في حروفي قوارعه
وعواطفه وجمالياته وقوته وسبره وذكاؤه وتفنيده رأيت أنني غريب ! .
وطالب العلم لا يستمتع بعلمه حتى يجد المشارك ! .

وكان القوم في ذلك الوقت على بقايا من ورع الأسلاف يكرهون سلاطة
اللسان والتهجم على الأئمة، وكان ابن حزم يرشق فلا يخطيء المقتل ! .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يسمي ابن حزم منجنيق المغرب ! .
ولما عدمت المشارك رحلت إلى الشيخ أبي تراب الظاهري في الحجاز،
وكان صيته قد ملأ الآفاق، وكان قد قرظني بكلمة إعجاب .

رحلت بشعرتين بارزتين ملتويتين في طرفي اللحية، وكنت ألبس الثوب
إلى طرف الساق متأثراً ببيئة تكره إسبال الثياب .
ويعلو جسمي صفرة ونحول بسبب الإجهاد والسهر والزهد في
الملذات .

وهي نعمة من نعم مقتبل العمر فقدتها في أيامي الأخيرة ! .
وبعد طول التسأل عمدتُ إلى شقة أبي تراب في عمارة باعشن،
فصادفت الظاهري يتوكأ على العكاز في السلام مهدفاً إهداف
النواير !! .

إلا أن
التهذيب .

وكان لبنا
المعممين !!
والتقينا و

إلا أنه كان يـ
وكان الشـ

أريحي بخضب
الكثيرة إلا بـ

ورجعت
من بقايا الأسـ

ورأيت أذ
لذلك ! .

وما زالت
أغذيها بالحب

على صهره با
له : هيت لك

ومن ذكره
حميد بمنزلي اـ

وكان ذلك
فصادفت الظاهري يتوكأ على العكاز في السلام مهدفاً إهداف

النواير !! .

(١) كتبت هذه
القلمي

إلا أن زيه زي عصري فلحيته رسمية تلوح كالحتم قد تحيَّفها التهذيب.

وكان لباسه من أخصه إلى قدمه لباساً أنيقاً، وكنت أحسبه من المعممين !!.

والتقينا ونسيت صورة اللقاء لشدة فرح الجانبين بلقاء الطرف الآخر، إلا أنه كان يتوقعه أنني على سن أعلى من السن التي رأني عليها.

وكان الشيخ صاحب مزاج لا يتفجر علمه في المجالس إلا في صفاء أرحي يخضع لحريته الإرادية، وكان لا يستحضر مذكور قراءته الكثيرة الكثيرة إلا بالمناسبات.

ورجعت إلى نجد بعين ضارعة، لأنني لم أجد في محيطي معماً كهذا من بقايا الأسلاف أطارحه ويطارحني !.

ورأيت أن علمه الجرم العباب مصروف لغير خدمة الظاهرية، فأسفت لذلك !.

وما زالت ولن تزال إن شاء الله لدي جذور ضاربة من الوفاء لأبي تراب أغذيها بالحب والعبق، ولا يهمني أن يتوقع ظاهري الحجاز وينزل ضيفاً على صهره بالرياض في أكثر الأحيان ولدي دارتا ابن حزم وداوود تقولان له: هيت لك^(١).

ومن ذكرياتي مع مشايخي أنني دعوت شيخني سماحة الشيخ عبدالله بن حميد بمنزلي (شقة) في غبراء.

وكان ذلك ليلاً، وكان ذلك قبيل وفاته بثلاث سنوات تقريباً.

(١) كتبت هذه التبريحة بعد جفوة غير طويلة على إثر عراك صحفي بيننا غذاه من يفرحون بالصراع القلمي.

وكان رحمه الله يأنس لي ويواسطني ، وكنت أفضي إليه بما عندي مما قد أتهيب أو أستحي من الإفضاء به إلى غيره .

وكان مع هذا عظيم التأثير علي .

وقد أرجف بي من أرجف ما بين شامت بي ، وما بين مشفق علي لما أظهرت التسمُّح في شأن الأغاني .

وكان يخبرني بأن الأمر لا يتسحق أن يستعدي علي مستعد عنده ، وكان يقول لهم : أبو عبد الرحمن ابننا ونتفاهم معه .

وكان يقول لي فيما يقول : إن كان عندك حجة على إباحة واقع الأغاني الراهن في البلاد العربية فأخبرنا ومنك نستفيد .

وكنت ألوذ بالحياء والزهد في علمي وفي نفسي .

وكان يقول لي : إذا كان شيخك ابن حزم يقول - كما تذكر أنت - : «وترك سماعه أفضل» : فلماذا تنصب نفسك داعية إلى المفضول على أحسن الاحتمالات !! .

وكان يقول ذلك على سبيل المداعبة ، ولكن وقع الشياطين أرحم ، وقد كانت مداعباته وسيلة تربوية أفدت منها ، وكان بساط مشايخي جنتي لأنني استرحت فيه لسماع الحق ، وحلَّق بي فيما بعد للأشواق الكريمة .

وأبلغني شيخني صالح ابن غصون متعني الله وإياه بالصحة والعفو والعافية أن الشيخ يسأل عني ويعتب لانقطاعي عن مجلسه ، فحضرت وإذا به يطرح خلال الحديث ما هو بيت القصيد حقيقة وهو مقالة نشرت لي بعنوان : (بل ننقي أقلامنا) وأظنها نشرت فيما بعد بالجزء السادس من كتابي الفنون الصغرى .

وهذه المرة أطلت النقاش معه ، وتمسكت بما انتهيت إليه .

وكان رحمه
هذا العصر لا
ابن العربي كفا
قال أبو عبد
شيئاً أختاره للقة

وفي دعوة .
الذقن المزيف .

وقد نشرت
عن شقراء ، ثم
وكانت القص

في صباي إذا .
بالكويت تتهم
وسمعت خبره في

وقد أعجب .
معاً .

وكان حاضراً
ناصر العبودي .

وكان إعجابه
نفس الجلسة عن
ومن ذكرياتي
سلم الوظائف رو
وكانت يومها

وكان رحمه الله لا يدخل في النقاش تفصيلاً، ويرى أن طالب العلم في هذا العصر لا ينبغي أن يُستهلك بمثل هذا، وأن في كلام القاضي أبي بكر ابن العربي كفاية بكتابه العواصم من القواصم.

قال أبو عبد الرحمن: ولهذا كنت أحرص إذا دعوته أو زرتة أن أستحضر شيئاً أختاره للقراءة: إما من بحثي، وإما من كلام ابن حزم.

وفي دعوة غبراء كنت معجباً غاية الإعجاب بقصة كتبها بعنوان: الذقن المزيف.

وقد نشرت بالمجلة العربية ثم بكتابي هموم عربية، ثم بكتاب ابن عمار عن شقراء، ثم بكتابي: ثلاث قصص من البيئة.

وكانت القصة واقعية المدلول تكونت أمشاجها من مشاهداتي للدراويش في صباي إذا تجولوا في القرى، ومن كتابات يقال إنها صدرت عنهم بالكويت تتهم بعضهم بالعمالة، ومن حكاية درويش عاش بالرياض وسمعت خبره في بعض المجالس.

وقد أعجب بها الشيخ أيما إعجاب، ورأى فيها ظرافة الأدباء وتعليبتهم معاً.

وكان حاضراً أستاذنا الأديب المؤرخ النسابة الجغرافي الرُّحلة محمد بن ناصر العبودي.

وكان إعجابه بالقصة أقل، وكانت دعوته أكثر إلى شيء سمعه مني في نفس الجلسة عن تاريخ القرية !!.

ومن ذكرياتي الوظيفية أنني دلفت إلى رئاسة تعليم البنات متدرجاً في سلم الوظائف رويداً رويداً حتى وصلت إلى وظيفة مدير الخدمات.

وكانت يومها وظيفة قيادية هامة، ولم أدلف إلى هذا العمل عن فراغ،

بل كنت موظفاً بإمارة المنطقة الشرقية في عهد سمو الأمير سعود بن عبد الله بن جلوي رحمه الله ، ولي مع سموه قصة عندما سلمته كتابي : « بين كميت والملحاء » قبيل وفاة الشيخ عثمان الحقييل رئيس محاكم الظهران رحمه الله .

وكنت موظفاً بديوان الموظفين العام (ديوان الخدمة حالياً) يوم كان مقره بوزارة المواصلات .

لم أت من فراغ . . هذا صحيح .

بيد أن ثقافتني الإدارية ثانوية ، وما كنت أتعنى للثقافة الإدارية إلا بمقدار ما يلزمني في عملي الذي أمارسه ، وكنت مشدوداً للمعارف الأخرى .

وقد سمق بي إلى منصب مدير الخدمات دعم خاص وإعجاب من سماحة الشيخ ناصر الحمد الراشد وترشيح سعادة الشيخ عبدالرحمن العثمان مدير تعليم البنات بالغربية حالياً ، وكان مدير الخدمات قبلي . وأول يوم تسلمت العمل جاءني عرض مذيّل بشرح سماحة الشيخ ناصر وهذا نصه : « لا بأس ويرتبط » .

وكان الموضوع تأمين أوتيس بالأجرة لنقل البنات في عنيزة ، وكان يحملته رئيس البلدية على الصليح رحمه الله .

ولقد كنت أتصيب عرقاً بين الفينة والفينة لأنني لا أعرف معنى الارتباط ، ولا أحب أن أسأل الموظفين الذين أراسهم عن معنى إداري عادي عندهم .

وكنت أشفق مع الصليح أن يستشف مني أني لا أعرف معنى الارتباط . وكان رحمه الله حديثاً ، وكنت أطول منه نفساً في جذب أطراف الحديث

لتغطية جهلي :

وكان والدي

تعمدته من غير

وكلمنا سألني

ثم أقحمه في

ولقد ضاق

للارتباط على ما

فأعطيته المع

الارتباط باللغة

ثم لحقته

وإنما أردت أن

وثمة ذكريار

العائنين .

قال ابن ماج

عن أبي أمامة أس

حنيف وهو يغتس

فما لبث أن لب

قال : من تتو

قالوا : عامر

قال : علام ي

فليدع له بالبركة .

لتغطية جهلي بمعنى الارتباط .
 وكان والدي عمر رحمه الله حاضراً وقد تضايق من ترداد الكلام الذي
 تعمده من غير أن يعرف الوالد قصدي وقد سماه خشاً !! .
 وكلما سألني عما ذا سأفعل بالأوتيس قلت : سرتبط !! .
 ثم أقحمه في حديث آخر .
 ولقد ضاق رغم طول باله فأخذ المعاملة بيده ، وقال سأذهب للمحاسبة
 للارتباط على المبلغ .
 فأعطيته المعاملة فرحاً جذاً وقد تحدت عني هموم الدنيا ، وفهمت أن
 الارتباط باللغة الإدارية حجز مبلغ من المال .
 ثم لحقته في المحاسبة بحجة أنني سأتابع موضوعه بنفسني .
 وإنما أردت أن أتابع عمليات الارتباط لأعلمها .
 وثمة ذكريات تتعلق بالعين ، ولا بأس من تمهيد بسرد لبعض وقائع
 العائنين .
 قال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار : حدثنا سفيان : عن الزهري :
 عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل بن
 حنيف وهو يغتسل فقال : لم أر كالיום ولا جلد مخبأة .
 فما لبث أن لُبط به فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له أدرك سهلاً صريعاً .
 قال : من تتهمون به ؟ .
 قالوا : عامر بن ربيعة .
 قال : علام يقتل أحدكم أخاه ؟ . . إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه
 فليدع له بالبركة .

ثم دعا بهاء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخله إزاره وأمره أن يصب عليه .

قال سفيان : قال معمر : عن الزهري : وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه .
وقد رواه النسائي من حديث سفيان بن عيينة ، ومالك بن أنس كلاهما عن الزهري به .

ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر : عن الزهري : عن أبي أمامة : ويكفأ الإناء من خلفه .

ومن حديث ابن أبي ذئب : عن الزهري : عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف : عن أبيه به .

ومن حديث مالك أيضاً : عن محمد بن أبي أمامة بن سهل : عن أبيه به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد : حدثنا أبو أويس : حدثنا الزهري : عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف : أن أباه حدثه : أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل ، قال : ما رأيت كالיום ولا جلد مخبأة ؟ !

فلبسط سهل فأتي رسول الله ﷺ فقبل له : يا رسول الله هل لك في سهل ، والله ما يرفع رأسه ولا يفيق ؟ .

قال : هل تتهمون فيه من أحد ؟ .

قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة .

فدعا رسو
أخاه ؟ . . هلا

ثم قال : اغ
فغسل وجهه
ثم صب ذلك ا
القدح ففعل ذل

وقال الإمام
ابن عيسى : عز
قال : انطلق عاه
قال : فانطل

قال : فوض
بعيني ، فنزل الما
ثلاثاً فلم يجيني ،

قال : فجاء ي
قال : فضرب
ووصبها .

قال : فقام ،
نفسه أو من ماله
وقال الأصمعي
فقال : أيتهن هذ
فقالوا : الف
والمورى عنها .

فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيط عليه وقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟.. هلا إذا رأيت ما يعجبك بركت.

ثم قال: اغتسل له.

فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخله إزاره في قدح ثم صب ذلك الماء عليه فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه ثم يكفأ القدح ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس.

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا وكيع: حدثنا أبي: حدثنا عبد الله ابن عيسى: عن أمية بن هند بن سهل بن حنيف: عن عبيد الله بن عامر قال: انطلق عامر بن ربيعة، وسهل بن حنيف يريدان الغسل.

قال: فانطلقا يلتمسان الخمر.

قال: فوضع عامر جبة كانت عليه من صوف فنظرت إليه فأصبت به عيني، فنزل الماء يغتسل، قال فسمعت له في الماء فرقة، فأتيته فناديته ثلاثاً فلم يجبي، فأتييت النبي ﷺ فأخبرته.

قال: فجاء يمشي فخاض الماء فكأنني أنظر إلى بياض ساقيه.

قال: ف ضرب صدره بيده، ثم قال: اللهم اصرف عنه حرها وبردها ووصبها.

قال: فقام، فقال رسول الله ﷺ: إذا رأى أحدكم من أخيه أو من نفسه أو من ماله ما يعجبه فليبرك فإن العين حق.

وقال الأصمعي: رأيت رجلاً عيوناً سمع بقره تحلب فأعجبه شخبها فقال: أيتها هذه؟

فقالوا: الفلانية لبقره أخرى يُورُون عنها، فهلكتا جميعاً المورى بها والمورى عنها.

قال الأصمعي : وسمعتة يقول : إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني .

وقال الأخباريون : كانت العين في بني أسد حتى إن البقرة السمينية أو الناقة السمينية تمر بأحدهم فيعائنها ثم يقول : يا جارية ، خذي الممثل والدرهم فائتينا بلحم هذه الناقة ، فما تبرح حتى تقع للموت فتتحر .

وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب الحياء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول : لم أر كالיום إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة !! .

فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين ، فأجابهم فلما مر النبي ﷺ أنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيداً وأخال أنك سيد معيون
قال أبو عبد الرحمن : الشاعر هو العباس بن مرداس .

قال أبو عبد الرحمن : سمعت والدي يحدث وأنا في أول التمييز وكنا مقيطين في بليدة قرب شقراء تابعة لها أن رجلاً في البليدة ترك بقرته عند بابه قبيل صلاة الظهر ، وكانت حافلة الضرع تقطر عافية ورواء ، فلما عاد وجدها مضطجعة قد ارتفعت رجلها إلى سقف الساباط (المجيب ، أو الرمل ، أو المجباب) وقد انتفخ بطنها فذبحوها ، وكانوا يظنون أنها أكلت خنفساء ، لأن الخنفساء سامة تقتل الماشية وتنفخ بطنها ، فلما سلخوا ضرعها وجدوا تحت الجلد مهراً بخمسة أصابع حمراء باضعة في الضرع ، وقد أخذ الضرع وعرضه على الخارجين من المسجد من صلاة الظهر .

فهذا أثر حسي منظور للعين .

وسمعت والدي
رمضان في سطح المد
(قعدني) فرأى الهلال
أخبر برؤيته خاف ع
خارجاً إلى أسوار
المسجد ، فاحتضن
الغنم) رأى الهلال
عينيه .

وسمعت الوالد ر
عاماً أعمى وكانت به
لصلاة الفجر فإذا به
فلما دخل المسجد
الله تلقاه .

وقد جرى المشل
استجدت له السلام
ويوم كان فضيلة
شقراء في حدود عام
أحدهما (عائز) والآ
ملازمة لنا وأعرق ص
حاله ، فيعلل وضعه
وكان رجل مشهور
أينما كسرتة وجدت ر

وسمعت والدي يحدث عن تلك البليدة أن الجماعة تراءوا هلال شهر رمضان في سطح المسجد قبيل أذان المغرب وكان بين المترئين بدوي قاطن (قعدي) فرأى الهلال وأُخرج أشد الحرج، لأنه إن كتم الهلال أثم، وإن أخبر برؤيته خاف على نفسه العين، لأن كلاً من الحاضرين تَلَقَّاعة، فانسَل خارجاً إلى أسوار البليدة وصلى وحده، ثم عاد والجماعة يخرجون من المسجد، فاحتضنهم بمنكبيه العريضين، وأخبرهم أن الشاوي (راعي الغنم) رأى الهلال، فدخل الراعي يتقدَّى بعصاه وعاش حياته فاقدًا عينيه.

وسمعت الوالد رحمه الله يحدث أن رجلاً في تلك البليدة بقي خمسة عشر عاماً أعمى وكانت بنته توصله إلى المسجد في الليل خاصة، وذات ليلة قام لصلاة الفجر فإذا به يبصر النجوم والجدران و (المصخرة) التي يتوضأ منها. فلما دخل المسجد وجدهم يعلنون عن الصلاة على فلان، وكان رحمه الله تَلَقَّاعة.

وقد جرى المثل عند عوام نجد في قولهم: (فلان مات نضَّاله) إذا استجدت له السلامة من بلاء.

ويوم كان فضيلة الشيخ صالح بان غصون متع الله بحياته قاضياً في شقراء في حدود عام ١٣٧٣ هـ كان يفد على الوالد رجلان من تلك البليدة أحدهما (عائن) والآخر (معين) يترافعان عند فضيلته، وكان المعين أكثر ملازمة لنا وأعرق صداقة، وكان يقوم وسط الليل وقد تورمت عيناه ورقَّت حاله، فيعلل وضعه بأن عائه قد استيقظ.

وكان رجل مشهور بالزواج والقوة في الجنس فوصفه موصِّف بعود العِشْرِ أينما كسرتة وجدت لبناً فتعطلت آله حتى برَّك له.

وحدثني محمد بن يحيى رحمه الله عام ١٣٧٣ هـ تقريباً أن عجوزاً لم يبق لها سوى نابين أسودين متهشمين فقال لها ولدها وكان تلقاعة: إن نخل آل فلان يسقي على كالتين فلفظت نابيهما في يدها.

وفي رواية: أنه قال مفتاح صفة آل فلان (وكانوا أثرياء) ليس له إلا ستين أو قلقتين، فلفظت نابيهما بيدها.

وحدثني الوالد رحمه الله أن طفلياً ضايق شلة من الأصدقاء فلما برم به أحدهم قال: صب القهوة للذي سواقيه لا تشبي !.

وأشار إلى الطفيلي، فارتدت القهوة من حلقه وبقي شاخصاً مدة جلوسهم حتى عودته فقام.

واستفاض لدى أشياخي العوام أن سيارة متجهة جنوباً وقفت فإذا عدلت شمالاً سارت وإذا أعيدت جنوباً تعطلت حتى حضر من تعلقت نفسه بها فرقاها فسارت مجنبة بإذن الله وعلى بركة الله.

وزارني ليلة ما أحد زملائي في الدراسة وكنت متأهباً مع والدي لنذهب معاً لعقد الزواج وهو أول زواج لي فصرفه الوالد بعنف، ولم يذكر له أين وجهتنا، فلحقته معتذراً وقلت له: الحقيقة أننا ذاهبون للعقد على بنت فلان.

فتنغصت حالة الزواج بالأكدار وعشت معها في جحيم لا يطاق حتى كان الفراق.

واشترت سيارة أمريكية غالية الثمن ودخلت بها البليدة أول مرة فيسر لي المحفوظ فلما عدت إلى الرياض وخرجت من مبنى جمعية الثقافة القديم في شارع الأمير فهد في يوم ماطر غائم ركبت الرصيف فصارت تسير وراء إذا حركتها أماماً وأعجزت حيلة المهندسين وأنفقت عليها أضعاف قيمتها

ثم بعثها بثلاثة يسر الله عليه.

وحدثت أن

العشاء في نور الجدار، فلما نام من رقبتى فإنه يخد سليماً بإذن الله.

وعوام نجد مأخوذ من المناض الشعر الفصيح.

ولعل ذلك ما العين.

والعرب تسمي قال رجل عند كأنه في فلك.

قال أبو عبد الله فعلى بن حمود بنات جميلات، يصيبهن بعينه.

وكان أمير المؤمنين

خرج سالم بن قفقفة أي رعدة فقة

ثم بعثها بثلاثة آلاف ريال خلال سنتين فعمرت واستقامت عند المشتري
يسر الله عليه .

وَحَدَّثْتُ أَنَّ أَحَدَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ يَأْكُلُ عِشَاءَهُ فِي اللَّيْلِ مَعَ ابْنِهِ بَعْدَ صَلَاةِ
العِشَاءِ فِي نَوْرِ الْقَمَرِ، وَكَانَ لِعِشَائِهِمْ نَكْهَةٌ لَذِيذَةٌ فَأُطْلِعُ عَلَيْهِ جَارَهُ مِنْ
الْجِدَارِ، فَلَمَّا نَامَ انْتَفَخَ بَطْنُهُ وَصَارَ يَصْبِيحُ بَعْدَ يَقْظَتِهِ وَيَقُولُ : فَكُوا يَدِ فُلَانٍ
مِنْ رَقَبَتِي فَإِنَّهُ يَخْنُقُنِي ، فَبَادَرُوا لَهُ بِفَضْلَةِ الْعِشَاءِ يَأْكُلُ مِنْهَا رَغْمًا فَقَامَ الْفَلَّاحُ
سَلِيمًا بِإِذْنِ اللَّهِ .

وعوام نجد يسمون العائن (نضولاً) ويسمون الإزلاق نضلاً، فهذا
مأخوذ من المناضلة، لأنه مراماة، والعائن يرمي بعينه كما مر في شواهد
الشعر الفصيح .

ولعل ذلك مأخوذ من (نضل البعير) بمعنى هزل، لأن الهزال نتيجة
العين .

والعرب تسمي العائن تلقاعة على سبيل المبالغة من اللقع وهو الرمي .
قال رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه : إِنْ فَلَانًا لَقَعَ فَرَسُكَ فَهُوَ يَدُورُ
كَأَنَّهُ فِي فَلَكَ .

قال أبو عبد الرحمن : وجد في الخلفاء تلقاعون .
فعلى بن حمود رحمه الله أمير المؤمنين في الأندلس كان تلقاعة، وكان له
بنات جميلات، وكان يوصيهن بأن يُذَكِّرَنَّهُ الشَّهَادَةَ وَالتَّبَرِيكَ حَتَّى لَا
يَصِيبَهُنَّ بَعِينُهُ .

وكان أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله يُتَهَمُ بِالْعَيْنِ .
خرج سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم من عند هشام فأخذه
قفقفة أي رعدة فقال : أَظُنُّ الْأَحْوَالَ لِقَعْنِي بَعِينُهُ . . . يَعْنِي هَشَامًا ! .

والعامّة في نجد يسمون الإزهاق نحتاً، والشاعر العامي صالح بن عبد الله السكيني يعيد خضراء من عين مشفوح نسي ذكر خالقه، ويعيدها خاله بالله لا ينحتونها.

ويسمون العائن نحتاً، ولعل ذلك من نحته بمعنى قشره وبراه كناية عن الهزال وهو من نتائج العين.

والطارمات جمع طارمة وعوام نجد يسمونها طرمة وكانت وسيلة مراقبة يخافها من يخاف العين ولهذا قال السكيني:

شهب اللوايح عسى نجم يحدرها وان ما كفى واحد يا الله بالثاني
قال أبو عبد الرحمن: من فسر البيت بغير هذا المعنى فقد غلط.

وقال نظام الدين القمي النيسابوري حاكياً مذهب المعتزلة: قال الجاحظ: يمتد من العين أجزاء فتتصل بالشخص المستحسن فتؤثر وتسري فيه كتأثير اللسع والسم.

واعترض الجبائي وغيره: بأنه لو كان كذلك لأثر في غير المستحسن كتأثيره في المستحسن.

وأجيب بأنه إن كان صديقاً حصل للعائن عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله، وإن كان عدواً حصل له خوف شديد من حصوله، وعلى التقديرين يسخن الروح، وينحصر في داخل القلب ويحصل في الروح الباصرة كيفية مسخنة مؤثرة، فلهذا السبب أمر النبي ﷺ العائن بالوضوء، ومن أصابته العين بالاغتيال منه.

وقال أبو هاشم، وأبو القاسم: لا يمتنع أن صاحب العين، إذا شاهد الشيء وأعجب به كانت المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص حتى لا يبقى قلب ذلك الملكف معلقاً به.

وقال الحكم المحسوسة، بل أو تصورياً كـ تتصرف في غير بالعين.

قال أبو عبد الله في تفسيره بعض عباده م لإزالة النعمة فإن شراً يمكن

ونحن مضى الوجود، وأسر وقائع كثيرة تـ هنالك مثلاً ذا متباعدين اتصـ وقيام التجارب من المعلومات

وكذلك التـ المثبتة، وهو محـ وغير التخاه الجهاز الإنسانـ فإذا حسد لنفي أثر هذا

وقال الحكماء : ليس من شرط أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً أو وهمياً كما للماشى على الجذع أو تصورياً كما في الحركات البدنية ، وقد يكون للنفوس خواص عجيبة تتصرف في غير أبدانها بحسبها ، فمنها المعجز ومنها السحر ومنها الإصابة بالعين .

قال أبو عبدالرحمن : أحسن توجيه في هذا الخلاف قول سيد قطب رحمه الله في تفسيره لسورة الفلق : «والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع ثمن زوالها ، وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيط ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي ، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هذا الجهاز الإنساني ، فهناك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلاً . . هنالك مثلاً ذلك التخاطر على البعد ، وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها ، ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من المعلومات .

وكذلك التنويم المغناطيسي ، وقد أصبح الآن موضعاً للتجربة المتكررة المثبتة ، وهو مجهول السر والكيفية .

وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالاً نفسياً معيناً إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختيار لا تصل

إلى سر هذا الأثر وكيفيته، فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان، وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ثم يستقر حقيقة واقعة بعد ذلك ! .

فهنا شر يستعاذ منه بالله، ويستجار منه بحماه .

قال أبو عبد الرحمن : العين حق، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ . [سورة القلم، الآية ٥١] .

قال أبو عبد الرحمن : كاد تعني المقاربة والإيشاك، والإزلاق ليس غريباً في معهود البشر، ولكن الله عصم رسوله ﷺ ومنعه وحماه وصانه فوردت صيغة المقاربة .

وفي عين شانية شوك القتاد، وفيه الحجر، وعلى أنفه الرغام .

والإزلاق هو الإصابة بالعين لشدة عداوتهم لرسول الله ﷺ .

قدّموا لإرادتهم الإزهاق بما يسميه العوام في نجد بالتوصيف كقولهم : ما رأينا مثله ولا مثل حججه .

ذكر الماوردي : أن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً - يعني في نفسه وماله - تجوع ثلاثة أيام ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول : « تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن !!! » .

فيصبيه بعينه فيهلك هو وماله .

وتعقبه القشيري بأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض .

قال أبو عبد الرحمن : ها هنال ثلاثة أمور :

أولها : إقرار الدعوى ومنع المعارضة من باب التنزل في الاستدلال .

أما من ناحية
تصيب إذا كانت
في الاستدلال .

ولكنها لا تعارض
المقاربة في الآية
الذي حصل إجماع
وثانيها : أن
لها .

وإنما توجد
في مال أو ولد أو
تحقيق هذه النعم
بالأسباب الفردية
تضر بيتاً بأكمله
فإذا وجدت

وثالثها : أن
فيهم المحب المعلن
غير الكراهية وال

قال أبو عبد
الإزلاق بمعنى
ويدل على أن

أولها : قراءة
وأبي وائل رحمهم

أما من ناحية إقرار الدعوى فنقول: عقيدة عوام نجد أن العين لا تصيب إذا كانت من عدوه وهذه دعوى موافقة لدعوى القشيري نقرها تنزلاً في الاستدلال.

ولكنها لا تعارض دعوى الماوردي ومن فسر الإزهاق بالعين، لأن صيغة المقاربة في الآية الكريمة دلت على أن الذي حصل محاولة إزهاق وليس الذي حصل إصابة بالإزهاق.

وثانيها: أن الكراهية والبغضاء ليست هي المانعة من العين أو الموجبة لها.

وإنما توجد العين بإذن الله بتوارد أمشاج منها أن يكون المصاب ذا نعمة في مال أو ولد أو خلق أو مهارة، وتكون أسباب العائن المادية غير قادرة على تحقيق هذه النعمة فيكون المصاب محسوداً، وتكون النعمة مما ينال بالأسباب الفردية ولهذا لا تؤثر عين الفرد على الجماعة والقبيلة والدولة وقد تضر بيتاً بأكمله.

فإذا وجدت هذه الأمشاج فلا معنى للكراهية وجوداً وعدماً.

وثالثها: أننا لا نقر بأن كل معاد لرسول الله ﷺ كاره له ومبغض، بل فيهم المحب المعجب، ولكنه حاسد معاند حاقد، والحسد والحقد والعناد غير الكراهية والبغض.

قال أبو عبد الرحمن: ويدل على أن المراد في الآية الكريمة العين أن الإزلاق بمعنى الإزهاق والإهلاك.

ويدل على أن الإزلاق بمعنى الإزهاق أمران:

أولها: قراءة ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم والأعمش ومجاهد وأبي وائل رحمهم الله: ﴿ليزهاقونك﴾، والقراءات أجل وجوه التفسير.

وثانيهما : أن الإزلاق بمعنى التنحية ينتهي في دلالة السياق إلى الهلاك ، لأن تنحي رسول الله ﷺ عن مقام النبوة الذي هو فيه بالنسبة لهم لا يتم إلا بإزهاقه ويأبي الله ما تمنى الكافرون .

وفي لغة العرب الزلق بمعنى الذي ينزل قبل أن يجامع ، وهذا معنى لحظة متأخرو العامة في نجد فاشتقوا التزليق .

قال سيد قطب : « وفي الختام يرسم مشهداً للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم في غيظ عنيف ، وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه ، ويصفها القرآن بما لا مزيد عليه : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ .

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! .

وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمة وضغن ، وحى وسم مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشتم البذيء ، والافتراء الذميمة . . . ويقولون إنه لمجنون ﴾ وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة ، فهو لا يكون إلا في حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميمة المحموم ! » .

قال أبو عبد الرحمن : يدل على هذا المعنى شعر العرب ، فقد ورد أن نظر العين شزراً بمعنى الرمي في قول الشاعر :

ترميك مزلفة العيون بطرفها وتكل عنك نصال نبل الرامي

وقال آخر
يتقارضون إذ
وتفسير سي
أصح وأرجح ،
الشرع ، ولأن
أرادوا دعوى ا
وقد يفقد اتزان
قال أبو عب
القرآن الكريم
لغيره ، وثبتت
ومن أنكر ا
وصلة الإنس ب
والإنس أعلم ؛
وكثيراً ما ال
بقولهم :
فلان معه
وهذا الاقترا
والأوراد التي
الله من كل الش
وقال الله ب
﴿ وقال يا بني لا
عنكم من الله ،

وقال آخر :

يتقارضون إذا التقوا في مجلس
نظراً يزل مواطىء الأقدام
وتفسير سيد قطب رحمه الله تفسير مليح بيد أن تفسير الإزلاق بالعين
أصح وأرجح ، لأن القراءة الثانية فسرت ذلك ، ولأن العين حق في عرف
الشرع ، ولأن معاصري التنزيل رجّحوا ذلك حسب مألوفهم ، ولأنهم
أرادوا دعوى الجنون بعد الإصابة بالعين ، لأن من أصابته العين قد يهلك
وقد يفقد اتزانه .

قال أبو عبد الرحمن : والعين وردت إليها الإشارة في ثلاث آيات من
القرآن الكريم ، وورد بها جملة أحاديث منها الصحيح لذاته ومنها الصحيح
لغيره ، وثبتت من تجربة البشر .

ومن أنكر العين ليس عنده برهان إلا عدم العلم بصلة النفس بالنفس ،
وصلة الإنس بالجن ، وعدم العلم ليس علماً بالعدم ، وخالق النفوس والجن
والإنس أعلم بآثارهم .

وكثيراً ما التصقت آثار العين بآثار الجن ، وعوام نجد يعبرون عن هذا
بقولهم :

فلان معه سبب . . أي مس جن على آثاره نفس : أي عين .

وهذا الاقتران تدل عليه تعويذات الأحاديث الشريفة .

والأوراد التي وظفها المصطفى ﷺ في النوم واليقظة عاصمة لا محالة بإذن
الله من كل الشرور لمن حافظ عليها ولم يضيعها .

وقال الله سبحانه وتعالى قاصداً علينا وصية يعقوب عليه السلام لبنيه :
﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني
عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل

المتوكلون ﴿٦٧﴾ . [سورة يوسف، الآية ٦٧] .

قال أبو عبد الرحمن : تالله ما هب على وجه الأرض أسخف ممن كذب ربه وزعم أنه أكمل عقلاً من يعقوب عليه السلام فتبجح بعقل يزعم أنه حضاري لا يعترف بالعين .

وما هذا التبجح إلا الاستكبار على مصدر الكمال .

خشي نبي الله يعقوب عليه السلام العين على بنيه إن دخلوا ملحوظين من باب واحد ، لأنهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد ، وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة .

وقد زكى الله علم يعقوب وحسن توقعه بقوله تعالى : ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

قال أبو عبد الرحمن : منكرو العين من الذين لا يعلمون ، ومن الذين يتبجحون بما لا يعلمون .

قال سيد قطب رحمه الله : «ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة ، أو هو غيره الملك من كثرتهم وفتونهم ، أو هو تتبع قطاع الطريق لهم ، أو كائناً ما كان فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع سوى أن يجد الرواة والمفسرون باباً للخروج عن الجوّ القرآني المؤثر . إلى أن قال : وقبل مما يذهب بالجوّ القرآني كله في كثرة الأحايين ، فلنطو نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق .

قال أبو عبد الرحمن : لا يجوز طي الوصية إذا وجدت احتمالات صحيحة يقبل أحدها الترجيح ، لأن هذا سبيل الاستنباط الذي مدحه ربنا وحض عليه من يخشونه وهم العلماء .

والمرجح في الأحاديث الشريفة
الله عنه . قال :
لا يرقأ .

ورواه ابن ما .
عن بريدة موقوفاً
وروى أبو يعا
قال رسول الله ﷺ
يتردى منه .

وروى الإمام
رسول الله ﷺ :

وروى الإمام
رسول الله ﷺ :

لا شيء في اله
ورواه أحمد بإ
في الهام ، والعين
وروى مسلم
النبي ﷺ قال :

استغسلتم فاغسلوا
وروى الإمام
بأسانيدهم إلى :

والمترجح في السياق ومألف العادة ومألف الشرع أن العين حق ، وأما الأحاديث الشريفة فمنها ما رواه أبو داود بإسناده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقاً .

ورواه ابن ماجه بإسناده إلى بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، ورواه عن بريدة موقوفاً سعيد بن منصور والبخاري ومسلم .
وروى أبو يعلى الموصلي بإسناد غريب إلى أبي ذر رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : إن العين لتوقع الرجل بإذن الله فيتصاعد حالقاً ثم يتردى منه .

وروى الإمام أحمد بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : العين حق . . العين حق تستنزل الحالق .
وروى الإمام أحمد بإسناده إلى حابس التميمي رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

لا شيء في الهام ، والعين حق ، وأصدق الطيرة الفأل .
ورواه أحمد بإسناده إلى أبي هريرة رضي أن رسول الله ﷺ قال : لا بأس في الهام ، والعين حق ، وأصدق الطيرة الفأل .
وروى مسلم في صحيحه بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا .

وروى الإمام الحافظ عبد الرزاق بن همام والبخاري وأهل السنن بأسانيدهم إلى ابن عباس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يُعوذ

الحسن والحسين يقول: أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة.

وروى ابن ماجه والترمذي والنسائي بأسانيدهم إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك.

وروى أحمد ومسلم وأهل السنن سوى أبي داود عن أبي سعيد رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ قال: نعم.

قال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس وعين تشنيك والله يشفيك باسم الله أرقيك.

وفي حديث أبي هريرة عند أحمد: العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم.

وفي حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها عند أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي قالت أسماء: يارسول الله: إن بني جعفر تصيبهم العين أفأستلقي لهم؟

قال: نعم: فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين.

وروى وكيع وابن ماجه والبخاري ومسلم وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ويُغسل منه العين.

وذكرت أن رسول الله ﷺ أمرها أن تستلقي من العين.

وروى البزار في مسنده بإسناده إلى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس. وعزاه الحافظ ابن كثير إلى كتاب العجائب للحافظ محمد بن المنذر الهروي

بلفظ: العين -
العين.

وذكر ابن ك
وفي حديث
قال أبو عب
فينادي بعقل ي
ذلك من الفولة

ومن تواضع
بالتبريك والاس

تباريح الكهر

استهواني ك
محمد كمال عبدا
الأربعين فما فو
إلى أمراض قاتل
الشرابين، ومر
والأورام الخبيثة

وابن الأربعة
اليوم أبناء مغلّف
من الزبل...
لأعراض منها
المهضمت ومز
الكثير الملمات ط

بلفظ: العين حق لتورد الرجل القبر والجمل القدر وإن أكثر هلاك أمتي في العين.

وذكر ابن كثير أن إسناد رجاله ثقات.

وفي حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عند أحمد: والعين حق.

قال أبو عبدالرحمن: أخشى أن يفد فارغ من بلاد الثلوج والعلاج فينادي بعقل ينكر العين ويكذب خالق العلل والأسباب ويعتبر المأثور في ذلك من الفولكلور أو المأثور الشعبي.

ومن تواضع للحقيقة فلا يفرط في أوراد الشرع وما أمر به من الرقية بالتبريك والاستغسال.

تباريح الكهولة وذكريات النشأة:

استهواني كتيب بعنوان: «انتبه..» فقد بلغت الأربعين» كتبه الدكتور محمد كمال عبدالعزيز الأستاذ بكلية الطب بجامعة الأزهر فإذا هو يضع ابن الأربعين فما فوق في مخاوف مروعة من أمراض الشيخوخة المزمنة الملازمة إلى أمراض قاتلة، فهناك ضغط الدم وآثاره، والذبحة الصدرية، وتصلب الشرايين، ومرض البول السكري، وسرطان المعدة والأمعاء، والسمنة والأورام الخبيثة.

وابن الأربعين اليوم يختلف عن ابن الأربعين في كل جيل مضى، فأبناء اليوم أبناء مغلّف لا نظير له في العصور يحملون قرباً من الغازات، وزنا بيل من الزبل.. يفتك فيهم الشلل والجلطة - جلطة المخ وجلطة القلب - لأعراض منها كثرة الدسم والنشويات وانعدام الحركة والغفلة عن المهضمت ومزيلات السموم من أمثال نقيع الزبيب وخل التفاح والثوم الكثير الممات طبخاً.. وتفتك فيهم الأورام الخبيثة (السرطان) لأعراض

منها التهامهم - في شبه اضطرار - للكيماويات والمصبرات .

أدركت الناس إلى هذه اللحظة في الولايم يلقون بالأرز من أكياسه في قدور الهطي ، ومن تأتق منهم في الولايم الصغيرة فإنه يُنقى الأرز من الحصى ويغسله غسلاً خفيفاً .

وقد جربت أن الأرز - من أي أرز - إذا نقع في ماء حار دقائق خرج منه ماء أصفر غليظ لزج ، فحق على الناس أن ينقعوه بالماء الحار مراراً ويغسلوه ، وأن يغلوا الأرز في القدر حتى يفور ثم يصفوه من مائه ليتخلصوا من مواد تصبیره ، وليقللوا من نشوياته .

وكثيراً ما انخدع الناس بفترة صلاحية الاستعمال للمواد الغذائية المصبرة بالكيماويات منتاسين أن هذه المواد التصبيرية نفسها هي طاعون المعدة والأمعاء .

وكل أجهزة الصحة لدينا مجندة لإجراء التجارب على المريض إذا وقع لعله يُشفى ، أما وسائل التوعية الوقائية فشبه معدومة ، وإذا تطوع الطبيب بتوعية ابن الأربعين أوصاه بلحمة حمراء خالية من الدسم ، وباللحم الأبيض .

أما كون ذلك اللحم من ماشية فتك بها الشعر الملوث بالكيماويات ، وأما كون ذلك اللحم مصبراً أشهراً حتى غدا عظمه أسود فلا يرد في موعظة الطبيب .

قال أبو عبد الرحمن : وأراهن على أن معظم فتكات السرطان التي كثرت في هذا العصر من المواد الغذائية المصبرة بمواد كيماوية قاتلة .

وحق على الفرد أن يكون طبيب نفسه فيتخلص ما أمكن من الأطعمة المصبرة ، ويحرص على الطازج غير الموبوء وإن غلا ثمنه ، فإن شحت الموارد

آثر الجوع قلياً
مثلاً ، ولا يجوز
ومن وصاي
بتجنب النهم

ومشتقاته ، وتة
على الفواكه الـ
لإحراق السـ
والمحافظة علـ
بمرونة الشرايين
وأوصى بالـ
أوصانا رسول

ووعي ابن
ربك ملحوظ ؛
قال أحمد بر
سنة نقصاً في ؛

قال أبوع
وذلك الإحسا
الركب ، والحـ
اليمنى وقد تـ
رمضان المبا
الاستخارة انـ
بالإثمـد وعلى ا

آثر الجوع قليلاً، واكتفى بالأدنى قيمة من الأطعمة إذا كان طازجاً كالتمر مثلاً، ولا يجوع من عنده تمر.

ومن وصايا الدكتور محمد كمال لابن الأربعين مقاومة السمنة والتكبرش بتجنب النهم والأطعمة الدسمة والنشويات والتعويض بالخضروات واللبن ومشتقاته، وتقليل الأكل ومضاعفة الوجبات إلى أربع خفيفات، والحرص على الفواكه الطازجة والموز النيء، والمداومة على المشي يومياً أو يوماً وراء يوم لإحراق السعرات الحرارية الزائدة في الجسم، وتنشيط الدورة الدموية والمحافظة على عضلات الجسم، والتخلص من الأحماض، والاحتفاظ بمرونة الشرايين.

وأوصى بالتقليل من الانفعالات، بل أوصى بتجنبها، وقيل ذلك أوصانا رسول الله ﷺ بأن لا نغضب.

ووعي ابن الأربعين بقسوة الظروف الصحية التي تنتظره إلا ما شاء ربك ملحوظ في ديننا وفي سيرة سلفنا.

قال أحمد بن عبد الخالق المجاصي: «من حين جاوزت الأربعين أجد كل سنة نقصاً في بدني وقوتي وعزمي».

قال أبو عبد الرحمن: لقد أحسست من نفسي ما أحصاه المجاصي، وذلك الإحساس منذ أزيد من عقد، فقد بدأت دكاكة الظهر، وتشطي الركب، والحدة والبرم وكثرة الرعية وأعبائها، وطوق الماء الأبيض عيني اليمنى وقد تقرر إجراء العملية لعيني بمستشفى الملك خالد قبيل شهر رمضان المبارك عام ١٤١١هـ، ولكنني بعد الإلحاح على ربي بدعاء الاستخارة انشرح صدري بترك إجراء العملية، وداومت على الاكتحال بالإئتمد وعلى الله كرمًا منه وفضلاً حسن العقبى.

وكان رسول الله ﷺ يكتحل بالإثمء ليلياً، كل عين يكحلها ثلاث مرات .

وكان رسول الله ﷺ يقول ثلاثاً حين يصبح وثلاثاً حين يمسي : « اللهم عافني في بدني ، اللهم عافني في سمعي ، اللهم عافني في بصري لا إله إلا أنت .

اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت » .

عزاه الشيخ سعيد القحطاني في كتيبه حصن المسلم إلى أبي داوود وأحمد والنسائي في عمل اليوم والليلة وابن السني والبخاري في الأدب المفرد، وعزا إلى شيخنا سماحة الشيخ ابن باز تحسينه .

قال أبو عبد الرحمن : ينبغي أن أقلد من حسنه حتى يتاح لي وقت أحقق ثبوته، وهذا هو معنى سؤال أهل الذكر .

وسأداوم إن شاء الله على هذا الدعاء لعل الله يحفظ لي صحتي لا سيما حبيبتي فإنني لا أحسن من أمور الدنيا شيئاً غير الكتاب وأعبائه، ولن أستفيد الاستفادة الكاملة من الكتاب إلا بواسطة عيني، لأنني تعودت التصفح والاختزال والقراءة العاجلة، ولم أفلح في الأعمال المشتركة إلا قليلاً .

ولقد ذكر الله الأربعين ووصفها ببلوغ الأشء وقرنها بالأمر بالابتهاال والعمل الصالح، لأنه بعد الأشء يبدأ ضعف الشيخوخة والانهاء إلى أرذل العمر .

وقد كان أهل المدينة في القرون الأولى الممدوحة عند بلوغ الأربعين يشدون المنزر ويجهدون في العبادة متأولين قول الله تعالى : ﴿... حتى

إذا بلغ أشده
أنعمت علي و
تبت إليك واذا
قال أبو عب
وفي دعاء
من الكسل و
أحدهما
الموصوف بمع
وثانيهما :
وكنء ألف
تراب الظاهر
من الصحيح
أحضر مراجع
الضبط وهو ف
وهذا الوج
إلى أرذل العم
ولهذا ابتهل
من آل يعقوب
وعلل علي
ولقد نشأت
تداعيات تاريخ
وأبرك لحظ

إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي أني تبث إليك واني من المسلمين ﴿١٥﴾ . [سورة الأحقاف، الآية ١٥] .

قال أبو عبد الرحمن : من لا يعقل منذ الأربعين فمتى سيعقل .
وفي دعاء رسول الله ﷺ الذي علمه أمته في الصباح والمساء : (أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر) . وفي ضبط الكبر وجهان :
أحدهما : كسر الكاف وسكون الباء من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بمعنى الكبر السبيء .

وثانيهما : كسر الكاف وفتح الباء .
وكنيت ألفت هذا الضبط طيلة عمري ، ولما كنت في منزل الشيخ أبي تراب الظاهري بجدة وقع نظري على الأدعية التي جمعها الشيخ أبو تراب من الصحيحين فوجدته ضبطها على الوجه الثاني بفتح الباء فلما ناقشته أحضر مراجعه ، ورأينا الأرجح المقدم في السياق ما اختاره أبو تراب في الضبط وهو فتح الباء .

وهذا الوجه هو الذي تشهد له دلائل ضعف الشيخوخة ووهنها والرد إلى أرذل العمر .
ولهذا ابتهل نبي الله زكريا عليه السلام إلى ربه بأن يهبه ولياً يرثه ويرث من آل يعقوب .

وعلل عليه السلام ابتهاله بوهن العظم واشتعال الرأس شيئاً .
ولقد نشأت صغري في صحبة وكنف جيل من أشياخنا العوام ، ولي ثمة تداعيات تاريخية سارة .
وأبرك لحظات حياتي هي تلك السنوات الأولى بصحبة الأشياخ بشقراء

قبل تلوث عقولنا بغوامض الفكر وانبهار سلوكنا بمتع الحياة وتلاشي نشأة
الفطرة والبساطة .

ولهذا أحمل أعباء كثيرة من هموم النشأة .

إنني أحزن حيناً شديداً إلى القرية ، ولكن القرية أصبحت مدينة صغيرة
وانسحبت عنها رويداً رويداً ذكريات الماضي .

وإنني أحزن إلى ملامح الشيوخ كما كنت أعرفهم بأزيائهم وسحناتهم
المشرقة بنور الإيمان .

وكنت سابقاً أحسدهم لما أرى لهم من مكانة سامية في المجتمع ، لأنه
لا يزاحم مكانتهم شباب يدعي الثقافة .

وكانوا يعمرون الأندية والمركز فتتهفو القلوب إلى طيب محضرهم ،
وحلاوة معشرهم .

واليوم أصبحت أخاف الشيخوخة ، لأنني أراهم يسدل عليهم الستار
بين جدران الدارات كما أرى الغفلة عنهم في ضجيج المدينة وصخبها .

وتعلمت من هؤلاء الأشياخ العوام الفطريين أموراً ليتني أستديمها ،
ففي هؤلاء الأشياخ طبع المؤمن الغر الكريم بلا استثناء .

ولهم أوراد موظفة وابتهاال ودعاء لا يتركون كفارة المجلس ، ولا تخطر
الريبة ببالهم ، ولكل ريبة عندهم محمل حسن ، والدمعة تملأ محاجرهم
وذكر الله يرطب ألسنتهم دائماً^(١) .

وعني أحدثكم أن من تجاوز الأربعين ونشأته كما أسلفت لكم حري بأن
يشد المنزر أسوة بأهل المدينة المنورة في سالف الزمان يتأولون خبر الله عمن

(١) كتبت هذه التبريحة قبل تعميم العلم الشرعي علماً وسلوكاً بالله ثم ببركة الصحوة الإسلامية .

بلغ الأربعين و

وفيما بعد إلا

أن يعتز بشيخ

وابن هذا

من نقص قواه

ولكن أسعد

فأكرمه ولده بال

رعيته الصالحة

أما أن تفح

بلا ريب ، ولا

وإن الله ير

وإن صلاح

الذي تنفعه ال

وسئلت مر

رمضان شرفه

وحرصت

وأبرك ما ألفته

هنية والدي ع

ومنذ دمدم

وأحسست بال

(١) كتبت هذه ال

بلغ الأربعين وبلغ أشده .

وفيما بعد الأربعين نذارة الإعذار لمن أراد الاعتبار وطلائع الوقار لمن أراد أن يعتز بشيوخه فيستر بها ما فات من تفريط .

وابن هذا الظرف يروعه أن يقلع ضرراً استهلكه الدهر أو يلحظ شيئاً من نقص قواه الجسمية والفكرية ، وكأنه يحس بدبيب الفناء .

ولكن أسعدهم من كان متزوجاً مبكراً ثم أحسن التربية لولده وأهله ، فأكرمه ولده بالسرور لما يراه من صالح أعمالهم في ذات أنفسهم ، ثم كثرت رعيته الصالحة فأحس بعز السلطان بينهم .

أما أن تفح في لحظات أنسه ذكريات الشباب المريرة فذلك ظاهرة خير بلا ريب ، ولا يروعه إن أسرع الفياة ودقق الحساب .

وإن الله يرحم شبيهة الإيمان ، ويسميه أهل جيلنا شبيهة الحمد .

وإن صلاح وفيأة أبناء ما بعد الأربعين صلاح العارف الصادق المجرب الذي تنفعه الذكرى .

وسئلت مرة عن نمط حياتي في شهر رمضان المبارك فقلت : ليست لي في رمضان شرفه الله حياة رتيبة محددة ، وإنما مر في عمري أنماط متعددة .

وحرصت بأخرة على أن أعيد نظام حياتي في شهر رمضان إلى أسعد وأبرك ما ألفته منذ بلغت الحلم في قريتي شقراء عمرها الله ، وكان لي من هيبة والدي عمر رحمه الله أعظم مؤدب وموجه !! .

ومنذ دمدمت عليه التراب منذ سبع سنوات^(١) أحسست بالفراغ الكبير ، وأحسست بالطفولة الحقيقية وأني بحاجة إلى شدته وكثرة تقريره .

(١) كتبت هذه التبريحة سنة ١٤٠٥ هـ .

وقد حصل في حياتي تأرجحات وتعرجات ، فآليت على نفسي أن أعود
ولو بالتدريج إلى نصابي وإلى حياة النشأة الفطرية المباركة في القرية
السعيدة .

كان والدي كثير الدعاء لي ، وكان في مرضه وقبل أن يفقد شعوره يتقطع
موعظة وتوصية بصلاتين تثقلان جماعة على المنافقين .
ولن يكون الابن باراً بحاج الدعوة في والديه إلا باستصلاح السيرة ولو
تدرجاً .

هذا استطراد لا بأس به .

لا أذكر أيام رمضان في الطفولة ، وإنما أذكرها منذ الحلم .

كنا بعد الإفطار وصلاة المغرب نصعد السطح مع والدي وأسرتي
ونتمدد مستلقين وجوهنا للسماء وزرقتها ونجومها المتلألئة وقد عزلنا الغنم
من الراعي وربطناها في مرابطها بنفس السطح الذي نستلقي فيه .

وعواء الكلاب يتسرب إلينا من حارة جميعة والمسعري .

وبعد استلقاء لا يتجاوز نصف ساعة نعمد إلى المصاخن فنجدد الوضوء
على عجل ويسر ، ثم نتبخر بالجاوني ، وأحياناً قليلة نتبخر بالعود الأزرق
إذا تسرت الحال .

ثم نعمد إلى المسجد ذكوراً وإناثاً ، كباراً وصغاراً فنحضر الدرس
والتراويح والقيام .

ثم نعود إلى السطح السعيد فيناولنا الوالد فذات من التمر اليبيس أو
الأقط أو العنب أو البطيخ أو لحيمات ذخرها من وجبة الفطور ويوزعها
بالسوية ، ثم ننام على التو ونصحو مع أذان الفجر الأول ونتسحر بما تيسر
من حليب وخبز أو لبن وقمر ، ولا نعاود النوم إلا في القيلولة .

أما في العشر
أما ليلة الع
وفي الضحى
وما قبل أذ
وكل واحد تزي
أحزر هذا
بن عباس وشة
والقبول .
وأنتم لم تجر
ذلك العهد تمز
وأكبر ما فقا
أيديهم الحرف
ساهين لاهين .
رحمهم الله و
الله أكبر ما
الله وجوههم وأ
ثم انتقلت إ
وسهري وسمري
يذهب النهار
وربما نشطت
إلا أن هذه أ
عن رمضانات ال

أما في العشر الأواخر فربما لا يزيد نوم الليلة على ساعة ونصف ساعة .
 أما ليلة العيد فنحيتها بالسهر والترتيب للعيد .
 وفي الضحى يواصل الطلاب دراستهم ويواصل الكبار حرفتهم .
 وما قبل أذان العصر إلى أذان المغرب جلوس في المسجد وتلاوة قرآن ،
 وكل واحد تزيد سعادته بعدد ختمه للقرآن .
 أحزر هذا الديدن السعيد بعشر سنوات ولا يزال يرن في أذني تلاوة حمد
 بن عباس وشقران وسليمان بن علي رحم الله ميتهم ومتع حيهم بالصحة
 والقبول .
 وأنتم لم تجربوا علي كذباً ، وإنني أصدقكم الحديث بأنني إذا تذكرت
 ذلك العهد تمزق قلبي حسرة وحننت حنين الإبل .
 وأكبر ما فقدته أشياخ من العوام بيض الوجوه غريضو اللحاء شققت
 أيديهم الحرف لا يعرفون بنوكاً ولا أسفاراً ولا سهراً ولم يرفلوا في نعمة الله
 ساهين لاهين .
 رحمهم الله وجمعني بهم في دار كرامته ، فإنني أشهد الله على محبتهم .
 الله أكبر ما أجمل مجالسهم وما أحلى حديثهم وما أطيب قناعتهم نضر
 الله وجوههم وأعاذنا من الفتنة بعدهم .
 ثم انتقلت إلى الرياض وغطست مع الأدباء والظرفاء وكثرت أسفاري
 وسهري وسمري في ليالي رمضان .
 يذهب النهار نوماً والليل سمرًا والصلاة عن ثقل وتباطؤ .
 وربما نشطت للعمل أول الشهر وآخره .
 إلا أن هذه الحياة الرمضانية بسلبياتها وإيجابياتها الأقل ذات بون شاسع
 عن رمضانات النشأة بشقراء السعيدة .

ثم أطلعتني المرأة على شعر أبيض يتكاثر وأغازله بالحناء، وأحسست
بضعف الشيخوخة في جسمي .
ووجدتني في كل لحظة أزداد علماً بدين الله إلا أنني أزداد تلاشياً وكسلاً
في العمل .

وظلال العشر سنوات المباركات يغازل وجداني وينغص علي سهوي .
فأول خطوة هجرت الأسفار منذ سبع سنوات .
ثم وطنت نفسي على ترك السهر والمنادمة في ليالي رمضان، وأن أهتبل
ما بين صلاة المغرب وما بين أذان العشاء وما بين الساعة التاسعة والنصف
والثانية عشرة للقراءة والكتابة ثم أنام ثلاث ساعات وأنام الصفرة خمس
ساعات .

وما عدا ذلك أحاول استعادة بعض من أمجاد عشر السنوات .
وبقيت في حياتي صفائر وتوافه .

ومن تلك التوافه أنني عجزت عن الإقلاع عن ظرف الأدباء والفنانين
في عواطفهم وأخيلتهم، وعجزت عن أن أكون كالشهيد سيد قطب إذ طلق
الأدب والفن واتجه للعمل الجاد .

وحاولت مكافحة صفائر الذنوب بالحسنات الصغيرة التي أستحضر
النية فيها .

فإن ختم الله لي بحياة جادة فذلك ما أرجوه ولا يزال لساني رطباً
بالدعاء .

وإن بقيت في إثارة من لهُو الأدباء وتظرفهم فإنني على يقين بأن الله
يستحيي من أن يعذب ذي الشيبة الموحد .

وأنا ذو الـ
شك والله المـ
وفي المأثـ
المعائب .

وحياتي كا
لا سيما الوالد
فكل هذه
وأسأل الله
عمري وأن
مستوحش .

ونحن أبنا
الأمم أعماراً،
قومه ألف سنـ

وتقاصرت
أو تناوشوا ثلـ
وقد تقصـ
ثم وجدت
مئة وخمسين عـ

وقد تقصـ
عام من الرواة
ووجدت
القرون المتأخر

وأنا ذو الشبهة الموحد إن شاء الله ما خطر على قلبي بفضل الله لحظة شك والله المستعصم فيما بقي .

وفي المأثور القدسي أن الله إذا أحب عبده ابتلاه بالمصائب ليظهره من المعائب .

وحياتي كلها كفاح وكدح وكثرة رعية وهموم دنيوية وفوادح فقد الأحباب لا سيما الوالدين وغبن الناس وقالتهم .

فكل هذه أحسبها في جنب الله وأرجو أن تكون تطهيراً .

وأسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة والعفو عما سلف والعصمة في بقية عمري وأن ألقى ربي بعد عمر مديد عامر وأنا مشتاق إلى لقائه غير مستوحش .

ونحن أبناء الأمة المحمدية أعمارنا بين الستين والسبعين ، ونحن أقصر الأمم أعماراً ، لأن من قبلنا عمر مئات السنين ، ولبت نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وتقاصرت الأعمار إلى عهد الجاهلية الأولى حيث وجد قلة بلغوا مئتين أو تناوشوا ثلاثمائة .

وقد تقصى أعمارهم السجستاني في كتابه المعمرين .

ثم وجدت نواذر من المعمرين في العصور الإسلامية بلغوا مئة عام إلى مئة وخمسين عاماً .

وقد تقصى أخبارهم شمس الدين الذهبي الحافظ في كتابه من عمر مئة عام من الرواة .

ووجدت خرافات وأكاذيب في بعض كتب الفهارس والاثبات في القرون المتأخرة فيما بعد القرن العاشر ممن يدعي علو الإسناد ويجعل بينه

وبين البخاري مثلاً ثلاثة أفراد على أن كل واحد منهم تجاوز ثلاث مئة عام.

وهم أشخاص مختلفون لا وجود لهم.

أما المعتاد من أعمار أمة محمد فهو أنهم يعيشون ما بين الستين والسبعين.

ولما قضى الله بأن تكون أعمار أمة محمد أقصر الأمم أعماراً جعلهم أكثر نسلاً وامتداداً على طول التاريخ وعرضه.

فكانوا أكثر أجيالاً، وكانوا أقل وأخف تكليفاً، وكانوا أعظم أجراً، وكانوا شهداء على الناس، وكانوا أمة مرحومة على وجه العموم.

فإذا كان لي لحظة تأمل لاتفلسف في هذه الأعمار، فإنني أقيس العبرة بأبناء الزمن الحاضر، لأنه أقرب للموعظة.

وأقيس بنفسي، لأنه أدل على صدق التجربة.

لقد نشأت في قريتي في كنف من بقايا الأشياخ العوام ذوي الفطرة الصحيحة، والعقيدة الراسخة، والعمل الجاد.

فمنذ بلوغ التمييز إلى مغادرة القرية أول عام ١٣٨٢ هـ كنت أعيش سعادة ولذة من ثلاث جهات:

أولاهن : الانشغال بطلب العلم والدراسة في المناهج المرحلية والقراءة الحرة والرواية الشفوية.

وكان طلباً للعلم خالصاً لا يشوبه حب الشهرة أو الاستعلاء على الأقران.

وثانيتها : صفاء النشأة والبيئة، فلا فلسفات تلوث العقول، ولا مغريات تهز الرصانة.

وكانت مواعيد
القلب تلقائياً دو

أستبطن
اللذة الروحية في
شيء في البيئة

وثالثتهن :
المأكل والملبس و
مجالس السمر و
ثم خرجت
والقتاد !

فالتحمت
المغريات^(١).

وازدادت بين
صفاء اليقين.

ونسيت نفسي
وانفصمت
القروية.

وإذا بي أعيش
وكثرت رعيّة
ولو كنت أء
وطالت الس

(١) كتبت هذه التبر

وكانت مواعيد الصلاة في المسجد جماعة من لحظات الأنس التي تأكل القلب تلقائياً دون ساعة أو منبه أو علامة .

أستبطن موعداً الأذان ، وأستعجل موعد الخروج من المسجد ، لأن اللذة الروحية تجربة نفسية عشتها وليست من دعاوي الصوفيين ، ولأن كل شيء في البيئة يعين على الطاعة .

وثالثهن : سعادة نفسية أخرى مآلها القناعة وتمام الرضى بالموجود من المأكل والملبس والمشرب والمركب والمأوى مع معاينة للألطف الإلهية وطيب مجالس السمر والأنس وتواليها مع أشياخ يأكل الطير من أيديهم ! .

ثم خرجت من قريتي خروج البط المغرب المهاجر إلى بلاد الحرمل والقتاد ! .

فالتحمت بشلة الصحفيين وظرفاء الأدب والفن ، واستفزتني المغريات^(١) .

وازدادت بين الفينة والفينة معرفتي بفلسات وأفكار تلوث العقيدة وتكدر صفاء اليقين .

ونسيت نفسي حيناً من الدهر .

وانفصمت عرى اللقاء لا المودة بيني وبين مشايخي وأترابي في النشأة القروية .

وإذا بي أعيش حياة مناقضة ومباينة لحياة ما قبل الغرارة .

وكثرت رعتي وفرضت علي حياة لا تريحني .

ولو كنت أعزب لقنعت بحصير أبي العلاء وعنز غاندي .

وطالت السكر وفقدت كل شيء من نعيم القرية إلا صلابة عقيدتي

(١) كتبت هذه التبريحة قبل ظهور جبل الصحوة المبارك .

وانطراحي بين يدي الله بالدعاء في أحلك لحظات الغفلة مع وخز ضمير
لازمي طيلة المدة التي نسيت فيها نفسي.

واستهلكت معظم العقد الخامس، فقارن الصحة والفيأة خور في
العزيمة، وقلة في النشاط، وخايلتني دكاكة الظهر التي يذكرها جار الله
الزنجشري، وغالطت نفسي بأصباغ من الحناء.

ومع هذه الفيأة كدت أسترده شيئاً من نعيم القرية، ولكن يلزم هذا
النعيم سهام من التباريح :

منها قلة الزاد وقصر الأمد ووعورة الدرب بالقياس إلى أعمار أمة محمد
ﷺ.

ومنها حزن ناشب في سويداء القلب على فراق الأحباب لا سيما
الوالدين، فما أفدح ذكراهما رحمة الله عليهما.

ومنها مصنفات عديدة عجزت عن إتمامها لفشل الوقت وكثرة الأعباء.
ومنها أعباء الرعية والتقصير في التربية.

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عودُه أبوه
اللهم إني أشهدك وأشهد نفسي على محبتك ومحبة من يحبك، وعلى محبة
رسلك وأنبيائك وأوليائك ودينك الذي فيه كل الخير والرحمة والعدل
والحكمة.

اللهم ارحم شيبتي وضعفي، واعف عن سالفتي واعصمني فيما
يستقبل.

وإن الله ليستحي أن يعذب ذا الشيبة الناشيء على عقيدة التوحيد.

قال أبو عبد الرحمن : ثمة أمران يترتب أحدهما على الآخر وردا في قوله
تعالى : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾،

ولنجزيهم أج

قال أبو عبد
الأخروي، وه
جلاله.

وإنما محل ال

قال أبو عبد

وأنا أطمح إلى
هي تحقق المآر
كل مأرب يتحذ

وإذا تلددت

ويشفق أن لا ي

وبدون تطلُّ

النفيس لسيدة

حياة طيبة في ال

لا يهم أن ت

معها.

وفي الحياة أ

فيها: الاتصال

وفيها الصح

وفيها الفرح

وليس المال إ

أعظم وأزكى وأ

ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿٩٧﴾ . [سورة النحل ، الآية ٩٧] .
قال أبو عبد الرحمن : أما العمل الصالح فمعروف ، وأُعرِفُ منه الجزء
الأخروي ، وهو جزاء بالأحسن ، وهو كرم رباني لا يحصيه إلا مسديهِ جل
جلاله .

وإنما محل النظر في الجزاء الدنيوي وهو الحياة الطيبة .
قال أبو عبد الرحمن : لقد مر بي ربح من الزمن في سنوات لهوي وغفلي ،
وأنا أطمح إلى صلاح أتوسل به إلى حياة طيبة ، وكنت أظن الحياة الطيبة
هي تحقق المآرب غير المحظورة شرعاً بإجمال وبلا استثناء ، وإذا بي لا أجد
كل مأرب يتحقق في حينه .
وإذا تلددت مأرب المسلم مع إلحافه وإلحاحه في الدعاء فإنه يخاف
ويشفق أن لا يكون مقبولاً عند ربه .
وبدون تطلُّب مني لتأويل الآية الكريمة وجدت مصادفة هذا الكلام
النفيس لسيد قطب يقول رحمه الله : « إن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه
حياة طيبة في الأرض .
لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال ، فقد تكون به ، وقد لا يكون
معها .

وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية
فيها : الاتصال بالله ، والثقة به ، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه .
وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة وسكن البيوت ومودات القلوب .
وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة .
وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل حين يتصل القلب بما هو
أعظم وأزكى وأبقى عند الله » .

قال أبو عبد الرحمن : ولا يقولن قائل : كل يعرف هذا .

نعم كل يعرف هذا إذ ذُكر به ، ولكن هذا النسق الجميل من أسلوب سيد قطب ذكرنا به ولم يجمعه في الذاكرة فحسب ، بل جمع عليه القلوب .

قال أبو عبد الرحمن : وإنه لينفض بي مجلس السمر في سنوات الضياع بعد ساعات طويلة من العتمة تستغرق أوقات نزول الرب جلا جلاله ، وهي ساعات سمر ولغو ليس فيها ذكر لله سبحانه ، ولا صلاة على النبي ﷺ ، ولا أخ شفيق يذكر أخاه إذا نسي ويكون مرآته .

وكلها عن قال ناجي والمهندس ، وأمل دنقل ودين يرقل ، وأيهما أعجب : أنت عمري ، أم عودت عيني على رؤياك ؟!

وربما تواضعت ثقافة المجلس إلى قال ابن سبيل ، وقال المجهاج ، وقالت مويضي البرازية !! .

ثم ينفض المجلس ويؤوب أحدا إلى فراشه فينق ساعات طويلاً لا يستجيب له النوم ، وإن مارس جمع أو ضرب أو قسمة أو طرح أعداد كبيرة ذات خانات عديدة ليحتال على النوم فإنه يحصو قلماً بعيداً إغماضه مباشرة . . وذلك قبيل الصحو المباركة ، وقبيل الوعي بالورد الذي يطرد القلق ، وقبيل الوعي بتسييح وتحميد يكون العوض عن خانات ذات أعداد كبيرة .

ثم يأخذ النوم في الوقت الذي لا يجب أن ينام فيه .

وفي قلبه وبين جوانحه مالا يعلمه إلا الله من الهم والغم والوحشة من الأرض التي تقله والسماء التي تظله . . وذلك فضلاً عن الوحشة بينه وبين ربه ، وبينه وبين عباد ربه الصالحين . . لا يطيق من مجادته وعبارته المتهالكة : أنا تعبان نفسياً . . يا أخي الحياة ماها طعم . . وما أشبه تلك العبارات .

وإذا تحة

وهؤلاء

في الأفق إلى

قال أبو

لا يذها خو

ومحبة للرب

إلحاحاً وإن

الحسنة .

ويعظم

دفتي المصحح

وامتداداً

البشري بعي

وساوس النف

رأساً .

وهناك ص

﴿إن صلاتي

١٦٢﴾ . فهؤلاء

ذات هم حتى

وعامة النا

وفي الاست

فإن الضع

الخامل في بيئته

في حياته الواق

وإذا تحقق له مأرب لم يلتذ به .

وهؤلاء في سكرة لا يعلمون متى تطلع الشمس ، ولا يلمحون مدارها في الأفق إلى أن تغيب ، ولا يدرون متى يكون ظل الشيء مثله أو مثليه !! .
قال أبو عبد الرحمن : ثم جربت الحياة الطيبة فوجدتها شجاعة في القلب لا يذلها خوف مخلوق ، ورضى بالعيش ولذة به ، وفرحاً يشب بالأرواح ، ومحبة للرب واستشعاراً بقربه وألطافه ، وثقة بالغنيمة من الدعاء كلما كان إلحاحاً وإن تلدد المأرب ، وثقة بأن للعبد عند الرب إذا قبيل منه الخيرة الحسنة .

ويعظم هذا السمو كل ما خلا العبد في بيت من بيوت العبادة ، أو بين دفتي المصحف ، أو في طلب العلم الشرعي .

وامتداداً للحديث عن هموم ابن الأربعين أذكر شيئاً من ضعف الذهن البشري بعيد هذه السن بتدني هواجسه . لقد تصرف الأدباء فسموا وساوس النفس حلم يقظة ، وهي هواجس ترك الفتى ملكاً ولم ترفع له رأساً .

وهناك صنف من الناس كادوا يقربون من تحقيق مدلول قوله تعالى : ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . [سورة الأنعام ، الآية ١٦٢] . ف هؤلاء ليس في حياتهم فضل لحلم اليقظة ، وليست الدنيا عندهم ذات هم حتى تشغلهم بأحلامها .

وعامة الناس لا يخلون من أحلام اليقظة بين مقل ومكثر .

وفي الاستئامة والاستسلام لحلم اليقظة ولو إلى حين شفاء أي شفاء .
فإن الضعيف في بنيته ، أو المغلوب على أمره ، أو القاصر في مواهبه ، أو الخامل في بيئته : يبطر في حلم اليقظة بطراً يعوضه عن كل نقص بُلي به ومني في حياته الواقعية .

وأما حلم الليل وهو تلعب الشيطان بابن آدم أو الرؤيا وهي من الله :
فقد مر في قراآتي (ولا أدري أين قرأت ذلك) أن الواحد منها ثانية أو
ثانيتان .

وقد يعبر في الحلم خاصة أكوأناً لا يحصيها العد .

وقد يكمل الإنسان حلمه بالواقع ، وهذا كثير في الشعر ، والإمام أبو
محمد ابن حزم يروي في طوق الحمامة أنه قال شعراً في النوم فأكمله في
اليقظة .

قال أبو عبد الرحمن : ولا أعلم أن أحداً اختلط عليه حلم النوم أو
اليقظة بالواقع الواعي سوى اثنين :

أحدهما : الفقير إلى عفوره كاتب هذه السطور .

فقد هممت مرات عديدة أن أشد الرحال إلى القاهرة فأطوف بمكتبات
أعرفها هناك فأخذ منهن نصيبي نقداً أو نسخاً من كتيبات لي طبعت
ونشرت هناك .

ومرات عديدة هممت أن أكتب لأصحاب المكتبات وأراسلهم .

ولما عازمت الأمر وجدتني لا أحقق تلك المكتبات ولا أين تقع .

ولعلها أن تكون على شارع البطحاء أخرى من أن تكون في عدلي أو
الكورنيش .

ولم أحقق ما هي هذه الكتب التي نشرت لي ، وإنما هي مشروعات كنت
أنويها .

فتحقق لي أنها أحلام قوية وكثر تذكري لها فظننتها واقعاً ، ومثل هذا
من بدايات الضعف البشري عند الانحدار من الأشد .

وثانيهما
العاطلين إلا

ربما يخرج
سيارته لنزهة

فيذهب ،
وكاهن الحرف

ثم تكو
فنخف القرا

أفهم الحا
أستغفر ا

وثمة تبار
لأنها موقظة ل

مرة كنت
أيام رمضان

لا أمن لا يهد
الأولى .

واستعادي
هذه القراءة ،

يهدّي بكسر
الغفيلي .

فتأملت ك
الخاطئة .

وثانيهما : صنف من المعتلفين بتبن الأدب، المتبقيين بقشور العلم،
العاطلين إلا من الشفافية، المخفّين إلا من الجهل.

ربما يخرج أحدهم بجريدته من مبنى المؤسسة الصحفية، وربما امتطى
سيارته لنزهة قبيل العان أو بُعيد صلبوخ.

فيذهب ويؤوب وقد استخفه حلم اليقظة بأنه فيلسوف أدب الحداثة،
وكاهن الحرف، ومقسم الحظوظ والألقاب والأرزاق الفكرية والعلمية !!.

ثم تكون الضحية نحن قراء الصحف والجرائد حينما يوقظنا الوعي
فنخف القراءة من يحلمون في اليقظة فيجلدوننا بسياط هوسهم.

أفهم الحالمون ونحن العالمون ؟.

أستغفر الله عن وساوس إبليس وتزيينه.

وثمة تباريح تعصر القلب في حينها، ولكنها محمودة العقبي سرية الأثر،
لأنها موقظة للذكرى، وذخيرة ووقود للمدلج.

مرة كنت في مسجد الأمير محمد بن عبدالرحمن رحمه الله أتلو في فجر من
أيام رمضان سورة يونس، وكنت أتلو الآية الخامسة والثلاثين هكذا:
﴿أمن لا يهدي إلا أن يهدي﴾ بتخفيف الدال وسكون الهاء من يهدي
الأولى.

واستعاذني القراءه شاب وقور مرات عديدة حتى رأى أنني مصمم على
هذه القراءة، وأن قراءتي عن جهل مني، فنبهني بلطف إلى أن الصواب
يُهدّي بكسر الهاء وتشديد الدال، وأظن أن اسمه راشد الحديثي أو
الغفيلي.

فتأملت كثيراً لأنني أنفقت أكثر من أربعين عاماً أقرأ بهذه القراءة
الخاطئة.

وكنـت في كل تلاوتي جهوري الصوت ، فلم أجد طيلة هذه الأعوام من يردني إلى الصواب ، فتأملت لنفسي ولمجتمعي .

ومع هذا حمدت العقبي حمداً لا أقوم لله بأدائه ، لأنني وجدت في شباب الصحوة من يحققون دين ربهم وإن رغمت أناف الكهول ! .

وحمدت الله أن كبحت جماح النفس وغرورها إذ علمت أن من شأنها النقص ، وأنه ليس من حقها الصلف والغرور العلمي .

وكنـت في صغري مغرماً بسور معينة أرددها قبل صلاة الجمعة إذ كان والدي يرسلني في الصباح الباكر ومعني بقشة مصحفه أو مروحته (مهفة) لأحجز له مكانه في الصفوف الأولى ، وكنـت أجهر جهراً يسمعه العابر من الماqqه .

وكنـت أجدب انتباه العامة وأحظى بدعواتهم وإصفائهم ، لأن صوتي بالقراءة تلك الأزمان من أمثل الأصوات .

ومضت عليّ هذه الأحوال سنوات لم أدر أن تلاوتي لحن وأخطاء حتى أصغي إلىّ وقد بلغت الحلم في مسجد الحسيني العبد الصالح المعمر السري عبدالعزيز بن أحمد الصائغ (ابن سري) نور الله ضريحه وجمعني به ووالدي وأهلي وأحبابي في دار كرامته ، فتتبع أغلاطي في تلاوة سورة القصص ، فكانت مما لا يحصى على قصر السورة ! .

فكنـت أقرأ ﴿ويستحيي نساءهم﴾ بياء واحدة ! .

وأقرأ ﴿يُصدر الرعاء﴾ بفتح ياء المضارعة ! .

وأقرأ ﴿لا تخف نجوت﴾ بسكون الجيم وبالهاء ! .

وأقرأ ﴿ولم يعقّب﴾ بتخفيف القاف وسكون العين .

أما اللحن نحواً فحدث ولا حرج .

فأخذت

أن هذا التخذ

تراجعي عن

الصلاة الجھ

بل أتلعث

من أولادي ؛

وفي سور

﴿أخرج منها

الشيخ حمداً

ولا أنكر

لتكون لغتي

تبايرج جيل

كل ما عث

الواجب فإنما

إنها الفترة

لقد توافد

نحمل صفاء

التنشئة .

وكنا مهيبين

عازمة فاضلة

بيد أن أبوا

فأخذت نفسي من يومها بالشدة، وحاولت تحقيق كل كلمة أنطقها، إلا أن هذا التخوف والتحفظ من نطق غير صحيح أحدث لي ردات فعل منها تراجعني عن الجهر بالتلاوة كمألف العادة، ومنها الهروب عن الإمامة في الصلاة الجهرية لأنني أكاد أتلعثم في سورة الفاتحة إذا كنت إماماً. بل أتلعثم في استذكار محفوظي من الذكر الحكيم إن عبر من عندي ولد من أولادي يميز حال المتلعثم !.

وفي سورة الأعراف أمضيت قرابة خمسة وثلاثين عاماً أتلوقوله تعالى: ﴿أخرج منها مذءوماً﴾ بالميم هكذا ﴿مذموماً﴾ حتى نبهني علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر.

ولا أنكر أن مثل هذه النقدرات أحدثت لي وسوسة في مراجعة معلوماتي لتكون لغتي عن خبرة علمية وبلاغية ولغوية قبل أن أكتب ما أكتب.

تباريح جيل ١٩٥٢ م :

كل ما عشته وعاشه لداتي وأترابي من رخاوة وتبلد إحساس وتقصير في الواجب فإنما هو حصاد فترة لا بارك الله فيها.

إنها الفترة الطويلة الكئيبة المتثاقبة... إنها حقبة الـ ١٩٥٢ م. لقد توافدنا إلى العاصمة واتخذناها سكناً لنا ومولداً لأولادنا فيها بعد نحمل صفاء وتقوى وبراءة الريف والقرية، ونخطو بعزيمة وكرامة التنشئة.

وكنا مهيين لأن تكون حياتنا كلها دون أن ينخرم منها يوم واحد حياة عازمة فاضلة مناضلة مجاهدة.

بيد أن أبواق الـ ١٩٥٢ م استغلت ضعفنا العربي وخدرتنا بالشعارات،

وعبأتنا بحماس الانتفاخ فظننا أننا أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط، وكان من شعاراتنا اللانحياز فظننا أن أكبر عدة لنا في الشرق الأوسط صنعت في قارة اللانحياز.

وأكلت الشعارات قلوبنا من مثل: الرجعية، والتقدمية، والتخلف، والمشايع، وأبوهريرة والأزهر الشريف.

وكانت المجلات المصورة التي لا سوق في البلد لغيرها تصور عمامة أزهرى على أنها كرة يقذف بها إلى الملعب شرطي من شرط شوارع علب الليل.

وصوروا رسول الله ﷺ ولعنهم الله بصورة ديك وتسع دجاجات.

وضج يومها العالم الإسلامي ضجيجاً إعلامياً.

وأخر رحلة مع السفهاء أن أعدم سيد قطب رحمه الله وصفق لإعدامه من صفق من الرعاع تحت الطلائع إما ماركسي وإما صليبي من أمثال غالي شكري.

تلك الحقبة أيها الأحباب هي حقبة الردة وقد نالت من سلوكنا ولم تنل من عقيدتنا بفضل الله ورحمته.

وها هنا اليوم شباب في عمر الزهور سعيذون بما هم فيه من صحوة إسلامية مباركة.

ألا فليقصروا عن لوم كهول عصرهم فقد كان شبابهم اليوم أسعد من شباب أيام الـ ١٩٥٢ م.

وهنيئاً لآل قطب منذ سيد، وحميدة، إلى محمد ما لقوا في سبيل الله، وأجرهم على الله، وما نركي على الله أحداً.

وما أمهل الله أتاتورك العرب الصغير، فقد أحيا الله بدم الشهيد سيد

شبيبة تحقق
تقليداً تاريخياً.

وحاقت الع

مجرى السنة الـ

بموت الفج

١٩٤٩ م الذير

لقد كان

وعلمنا من دين

فكنا نجم

من رجعية معا

وكان علماني

وتسع دجاجات

وكان علماني

وكانت لي

عام ١٣٨١ هـ

بكنية أبي نفلا.

وكنت متاب

وكان سعد العا

ولست أقول

الشبيبة، فذلك

العامية.

وإنما أقول

شبيهة بتحقيق المجتمع الذي يريده سيد . . مجتمعا يرى الإسلام ضرورة لا تقليداً تاريخياً.

ولما حقت العقوبة بأتاتورك الصغير، فكانت على الحول هزيمة ٦٧ التي هي مجرى السنة الكونية فيمن حادَّ شرع الله ، وتلا ذلك بسنوات هلاك الصغير بموت الفجاءة ، وتبع ذلك هلاك صعاليك فالوجا «إيجال ألون» سنة ١٩٤٩م الذين سرقوا دين الأمة وأمنها وخيرها .

لقد كان «معالم في الطريق» صياغة أدبية ممتعة لما تربينا عليه بالفطرة ، وعلمنا من ديننا بالضرورة .

فكنا نجمِّل به مجالسنا في حين كان نصراني من أمثال غالي شكري يحذر من رجعية معالم في الطريق .

وكان علماني من أمثال صلاح جاهين يرسم الكاريكاتير الهزلي عن ديك وتسع دجاجات بجريدة الأهرام .

وكان علماني آخر يرسم عمامة أزهرية يقذف بها إلى الملعب .

وكانت لي يومها مساهمات صحفية حماسية لم تنضج علمياً بعد أنشرها عام ١٣٨١هـ بجريدة اليمامة والقصيم وغيرها تارة باسمي الصريح ، وتارة بكنية أبي نفلا .

وكنت متابعاً جيداً للعلاج أعداء الله ، وأكاذيب ، وخطب الصغير ، وكان سعد العلماني قبله خطيباً .

ولست أقول كان فكر آل قطب والغزالي والمودودي غذائي الروحي في الشبية ، فذلك الفكر ذاته هو تربية والدي ، وهو تنشئة القرية الأمية العامة .

وإنما أقول : إن أعمال أولئك الأخيار أيقظت عقولنا وربَّت عواطفنا

لتحمل الفكر الإسلامي وفهمه فهماً يقرر الحقيقة ويشحن المشاعر بالتزامها أكثر مما يزيل الشبهة المستوردة.

وبحمد الله انسلخت من تاريخ ١٩٥٢ العلماني التنن نظيف الفكر صلب العقيدة.

وإنما وقعت في غواية فنيهم وأدبهم، فكنت أرتاد حي المنيرة في الظهران في عصور مبكرة، فأنظر شيئاً من سينماهم وفنيهم.

وإذا عدت إلى شقراء وجدت والدي على فقره (وبالحاح مني) أحد قلة يملكون راديو فيلبس على البطارية البدائية.

فكنت أسد منافذ الصُفة لأسمع الخمشي أو إحدى السّتين: المهدية، أو بنت إبراهيم !!.

وانهمكت في فنيهم إلى أن اتخذت منه مادة للصحافة، وكنت أروي عطشي لمشاهدة فنيهم إذا تنزهت بأبي صير، أو مارست عملي مراقباً في التلفاز حيث شاهدت كثيراً، ومنعت كثيراً.

ولذلك قصة أيها قصة في مسرد التباريح.

وكنيت بين مطرقتين: مطرقة الوالد واعظاً، ومطرقة الشيخ ابن داوود مُسخفاً رحمهما الله.

فعدت إلى نصابي لسلامة فكري وعقيدتي وقد قيل: إذا سلم العود فالحال تعود.

وحضرت حفلاً ثقافياً لمدرسة تحفيظ القرآن التي يديرها أخي الشيخ إبراهيم المليفي، ومع أنني حضرت بعض مواد الحفل لاجتماعها فقد كنت في شرود ذهني أمام كثير مما شاهدته، لأن ذهني اختصر الماضي فكان كل لحظة.

وأنتجت

أولاهما:

على تربية عا

وأخراهما

وقد غلغ

سلوكه باسم

فكان جـ

اللحية، وية

لغير ضرورة

وحورب -

وصادفت

وانعقد قلبه =

وذلك فضـ

وصار صـ

والدخول . .

وغالبت

متحمسين لدـ

للعقيدة بترنم

لعشرين مثلهـ

دينه أن يجتهد

وأنتجت لي المقارنة نتيجتين :

أولاهما : أن شباب جيلي يوم كنت صبيّاً مثلهم أبناء عوام أميين فنشأنا على تربية عامية قاسية في البيت وعلى انبهار حضاري مادي خارج البيت . وأخراهما : أننا نشأنا بعد اليفاع مهيين لأن نكون آباء .

وقد غلقتنا أجواء عام ١٩٥٢م وما قبلها، فكان الشاب محارباً في سلوكه باسم محاربة التزمت والعُقد .

فكان جيلنا جيل الغرارة يطيل الثوب إلى ما تحت العقب، ويحلق اللحية، ويقزع الرأس، ويخفّس الشنب، ويلبس الجورب في عز القيظ لغير ضرورة صحية .

وحورب جيلنا في عقيدته باسم حرية الفكر، وخطورة الرجعية !! .

وصادفت الصحوة الإسلامية جيل آباء متعلم أسرع الفئدة إلى ربه، وانعقد قلبه على تحدي الإمعية في الزي والمأكل والملبس والمركب . . إلخ . وذلك فضلاً عن التمسك بالدين عقيدة وسلوكاً .

وصار صبياننا يقرؤون كفارة المجلس، ويتلون دعاء الركوب، والدخول . . إلخ .

وغالبت العبرة والتنهد وأنا أرى أمامي فتناً كالليل المظلم وبراعم متحمسين لدين ربهم، وزى أمتهم، يرتلون أناشيد الرجولة، والمحسسات للعقيدة بترنم العرب، دون غناء بالطبل والموسيقى، وتذكرت أنني أب لعشرين مثلهم^(١)، وجد لأربعة مثلهم، وتذكرت أن من تمام محبة الله ومحبة دينه أن يجتهد العبد في الدعاء لولده ليكونوا مهتدين .

(١) الآن أب لأربعة وعشرين وجد لعشرة . . أقول ذلك وأنا بنهاية آخر شهر من عام ١٤١١هـ .

وتذكرت دعاء الأبوين الكريمين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾.

اللهم ثبتهم وأعزمهم على الاستقامة حتى يلقوا ربهم، وأعزهم الإسلام وأهله آمين آمين يارب العالمين.

ويزع الله بالقرآن ما لا يزع بالسلطان، ويزع الله بالسلطان من لم يزعه القرآن، ولهذا تدل كثرة الجريمة على قلة الإيمان في المجتمع.

والمجتمع المثالي يكون علنه معصوماً، وتفرقه بإذن الله مرحوماً.

ولا شيء يُصلح الأفراد مثل صلاح المجتمع ورقابته، وهذا هو معنى الولاية والموالة والحسبة.

ولقد كنت من نوابت الصحوة القومية من جيل ١٩٥٢م، وكان جيل فتنة، وكان الشاب يستحي أن يكون متديناً، ويحب أن يوصف بحرية الفكر والسلوك وعدم التزمت، فكان مجتمعي خصمي ومهلكي.

وأدركت جيل الصحوة الإسلامية، وكنت أستحي من شباب كنت أحلمهم على كتفي أطفالاً.

فأيقظ مجتمع الصحوة كوامن من وقدة النشأة، وصادف ذلك رسوخ عقيدة لم يهزها إلحاد جيل ١٩٥٢م والحمد لله على كل حال.

فانتفضت بأشواقى إلى ربي، وبإشفاقي منه، وعدت إلى نصابي سيفاً صلتاً رغم بدايات ضعف الشيخوخة.

أضرب لكم مثلاً بسيطاً حينما يرخي الشاب ثوبه إلى باطن قدمه فلا يخرج مجتمعه بأدنى انتقاد حينئذ يكون المجتمع غير معصوم علنه، ويتحول المنكر إلى معروف بالتدريج، فينحل الأفراد.

وبضد ذلك يعود الفرد إلى مجتمعه آبياً مستحيماً، فيكون تفرق المسلمين مرحوماً والله المستعان.

تباريح اله

اسمي

وشهرتي

تأسيت في

الترمذي،

عبدالبر، وأبو

ورحمهم.

مولدي في

على أي -

يهربون من -

أما أنا،

الشايب، فأد

أحب أن

أن يمتعنا بأد

عمله.

ذكرياتي تـ

لا أدري

والفضول ؟!

لا أدري !

أحببت الـ

رحمه الله .

(١) كتبت هذه الـ

تباريح الهوية :

اسمي محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل .
 وشهرتي أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري .
 تأسيت في الكنية بعبدالله بن عمر، وأحمد بن حنبل، وأبي عيسى
 الترمذي، وأبي جعفر ابن جرير، وأبي محمد ابن حزم، وأبي عمر ابن
 عبدالبر، وأبي العباس ابن تيمية... إلخ... إلخ رضي الله عنهم
 ورحمهم .

مولدي في الحفيظة عام ١٣٥٧هـ، وعُدِّل إلى عام ١٣٦١هـ .
 على أي حال أكملت خمسين عاماً حسب الواقع^(١) كثيرون من الناس
 يهربون من إحصاء سنوات العمر، ويكرهون الشيخوخة .
 أما أنا فأحب الشيخوخة، وأولادي يقولون: جاء الشايب خرج
 الشايب، فأطير لذلك فرحاً .
 أحب أن أظل دائماً شيخاً بشرط أن لا أدب ديبياً، وألح في مسألتي لربي
 أن يمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا، وأن نكون ممن طال عمره وحسن
 عمله .

ذكرياتي تكاد تفوق ذكريات الشيوخ .
 لا أدري هل أنا شخت فعلاً، أم أن ذاكرتي تتميز بالحوية
 والفضول ؟!

لا أدري !! .
 أحببت الشيخوخة لأنني منذ نشأت بصحبة الشيوخ بتحجير والذي
 رحمه الله .

(١) كتبت هذه التبريحة عام ١٤٠٧ هـ .

وجمهرة أصدقائي اليوم من الشيوخ الأموات أناجي مؤلفاتهم وسير أخبارهم.

عندي عشرون ولداً ما بين ذكر وأنثى وثلاثة أسباط^(١٩).

التحقت بالدراسة المنهجية وأنا كبير السن، إذ كانت دراستي في الكتاتيب لدى الشيخ عبدالعزيز بن حنطلي رحمه الله.

لقد كان والدنا ومربياً ومعلماً ذا صفاء ونقاء وتواضع مع كرم النسب والأرومة.

كانه من جيل الصحابة والتابعين رحمنا الله وإياه، وجزاه عنا خيراً، وجمعنا به في دار كرامته.

لم أخرج من الابتدائي إلا في عام ١٣٧٦هـ.

وأول مرة عرفت التاريخ الهجري رغم كبر سني عام ١٣٧٣هـ عندما زار الملك سعود رحمه الله شقراء، وزار مدرستنا وأظن أن اسمها اليوم المدرسة الابتدائية الأولى.

أذكر زيارة الشيخ محمد بن مانع رحمه الله للمدرسة وكان مديرنا يحفظنا نظماً ميتاً يمتط به لسانه ويرخي به خنكه على أنه لحن وأناشيد وطنية.

أمتع ذكرياتي في هذه المدرسة (على أنني أغص وأشرق بثلاث ذكريات من الظلم الفادح بسبب التعصب القبلي، وبطل المأساة واحد) زيارة حديثة العهد، وهي أول زيارة قمت بها لشقراء بعد طول الغيبة طاولت جدار المدرسة أطل على الفصول والساحة ففرطت منى ساعات بغير وعي أستعيد شريطاً من الذكريات.

(٢) والآن أربعة وعشرون كما مر.

أمر سوق
مني الساء
رابعة... إ
أعد الأب
رؤيتهم ومجا
كنت أنا
ونذرع السد
كان أجا
بأمره.

وكانت ذ
كان الحد
يارعا الله
وقد فطر
تتوثب.

واصلت
القضاء منذ
لبعضها في ه
بذل معا
حتى قبلت
ولما حصل

(١) كتبت هذا.

أمر سوق الحسيني ، ومسجد الحسيني فتخذلني رجلي عن السير، وتفرط
مني الساعات أبكي مرة، وأضحك أخرى، وأتأوه ثالثة، وأعجب
رابعة... إلخ... إلخ.

أعد الأبواب والكُوى وأحصي ساكنيها فأجدهم تحت الثرى، وقد كانت
رؤيتهم ومجالستهم زينة حياتي.

كنت أنا وأخي عبدالله نطوف بمسجد الحسيني ومسقاته فنلثم الجدران
ونذرع السطوح والخلوات.

كان أجدادي وكان خالي عمر بن محمد سدنة هذا المسجد والقائمين
بأمره.

وكانت ذكرياتي مع المسجد من أمتع وأروع ذكرياتي.

كان الحسيني (مسجداً وسوقاً) بذرة الوطنية في قلبي فلا تخمد وقدتها.

يارعا الله تلك المعاهد والمرايع !!.

وقد فطرت على قلب خشوع، وطُرف دموع، وكبد تفطر، وروح

تتوثب.

واصلت دراستي حتى أخذت شهادة الماجستير في التفسير من معهد
القضاء منذ ستة عشر عاماً^(١)، وكانت لي مع الماجستير ذكريات مرة ألمحت
لبعضها في مقالة ليت للبراق عيناً في كتابي هكذا علمني ورد زورث.

بذل معالي الشيخ حسن وزير التعليم العالي جهوده جزاه الله عني خيراً
حتى قبلت في التسجيل لشهادة الدكتوراه بالأزهر.

ولما حصل ما أريد هجرت الدكتوراه بحريتي، وكدت أفتنع بأن الرسالة

(١) كتبت هذه التبريحة عام ١٤٠٧ هـ.

الخاضعة لتوجيه أي مشرف ولمخطط صناعي ليست من العلم في شيء .
أسرفت في التأليف جداً فطبع لي خمسة وأربعون مؤلفاً، وما لم يطبع بعد
أكثر .

ولكنني لم أفرغ بعد التأليف واحد أمحضه تعبي وإخلاصي ووسوستي .
أنهيت دراستي في كلية الشريعة وأنا منتسب إذا أُلجأتني الظروف للوظيفة
منه عام ١٣٨١هـ بإمارة المنطقة الشرقية، ثم بديوان الموظفين (ديوان
الخدمة المدنية حالياً)، ثم برئاسة تعليم البنات، ثم بوزارة الشؤون البلدية
والقروية مستشاراً شرعياً فمديراً عاماً للإدارة القانونية .
عملت مديراً للشؤون الثقافية بجمعية الثقافة والفنون، ورئيساً للنادي
الأدبي بالرياض .

والآن أعمل عضواً فيها^(١) .

حياتي الاجتماعية خصية بالتجارب جربت الفقر والغنى والاعتدال .
كان أبي رحمه الله فقيراً، ولكنه مستمتع بحياته، لم نفقد النعمة في بيته
ألبته، وأقر الله عينه بأن قضيت دينه في حياته .

تعلمت منه التطبيق العملي لمضمونين شرعيين كبيرين كريمين هما :
خيركم خيركم لأهله .

واللهم أعط ممسكاً تلفاً، وأعط منفقاً خلفاً .

مات لي أربعة عشر من الإخوة والأخوات ووعيت فادحة ثلاثة منهم .
وفدحت بوفاة أمي وسني صغيراً جداً عام ١٣٧٢هـ فكان حزني أخف .

(١) ثم رئيساً لتحرير مجلة التوباد، ثم عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وصاحب
والطائرة، و
ووسدته الترا
أنساها ما حي
وإن الحزا
أعي في د
فالبينة بيئ
البرد القارص
صدور ونيات
البنوك، ولا
يساوي بضعا
إذا رأيت
على صحبة تا
والأكل له
أياماً لحماً، وأ
خالصاً، وأياه
ترسيب ما فيه
والنكتة لها
والبيئة بكر
والعوادم .
بيئة حياة ا
أن يتقطب بس

وصاحبت والدي في معظم أسفاره على الحمار والجمل والسيارة
والطائرة، وكان والدًا وصديقًا في آن واحد، وأقعده المرض عشرة أعوام
ووسدته التراب رحمه الله جلدًا على عظم، ولكنني لم أنس فادحة فقدته ولن
أنساها ما حييت ! .

وإن الحزن ليكبت أنفاسي في بعض اللحظات .

أعني في طفولتي لذة الحياة بامتاع معاني اللذة .

فالبيئة بيئة ذوي سحنات ألهمت أعباء الحرفة وحرقت الهجير ونفحات
البرد القارص . . . ألهمت كل تلك الأعباء رجولة، مع دين متين، وسلامة
صدور ونيات . . . كل واحد منهم أنضى شيطانه فكان هزياً، لا يعرفون
البنوك، ولا الدغل، وما يليسه أحدهم على ظهره ورأسه وفي رجله لا
يساوي بضعة درهما .

إذا رأيت ذئاب العصر الراهن ذوي الزي والأناقة أكلني قلبي حسرة
على صحبة تلك الوجوه المفلحة إن شاء الله !! .

والأكل له طعم ونكهة ولذة وإن كان من قوائم جمل بازل . . . نأكل
أياماً لحماً، وأياماً نأكل لحماً مشروكاً بعصب، وغلاب، وأياماً نأكل عصباً
خالصاً، وأياماً نأكل هبشاً مؤدماً بحفنة نخالة طبخت بمرق عظم أريد
ترسيب ما فيه من دهن .

والنكتة لها دهشة وإن كانت ساذجة لأنهم صرخاء لا يجيدون التمثيل .

والبيئة بكر ناعم بشمسها وعليلها ونجومها وسماها لم تلوثها المبيدات
والعوادم .

بيئة حياة الطفولة لا تعرف العقد ولا البرم، وليس في دنياهم ما يستحق
أن يتقطب بسببه الجبين .

لا يعرفون العنوس وإن كانوا في ضجيج الحرفة.

وأرى أنني في آخر هذه العقود الخمسة عشت حياة لالقاء بينها وبين حياة بيئة الطفولة البتة ما بين زخم في الحضارة، وثرثرة في الثقافة، وتلون في الفلسفة، وتعمق في الفكر.

إلا أنني وكفى بالله حسياً أحن حنين الخلود إلى بيئة الطفولة.

لا أحن إلى طفولتي الهادئة الضعيفة، وإنما أحن إلى بيئة عايشتها طفولتي بين وجوه عريضة ملتحية، وجباه تشرق فيها ثفنات السجود.

ولا أعني في الصبا واليفاع إلا انهماكي في طلب العلم على غير معلم، أو تدويني من المعلم ما لا يعتبر علماً كراوية المأثور الشعبي الذي رويته عن آل يحيان، وآل سكران، وابن جويعد وغيرهم رحمهم الله.

وكلما ازددت علماً في الصبا واليفاع غير العلم الشرعي ازددت حرقه وبكاء رومانسياً، لأنني في كل لحظة تعلم أبعد عن بيئتي خطوة !!.

ولا تقل لي: بربك أين المراهقة !!.

فأنا لم أعرف المراهقة الأدبية والفكرية إلا في أولى مراحل الكهولة.

وأما مرحلة الكهولة فلا أحتاج إلى عصر الذاكرة، لأن كل ما مر من كهولتي ماثل أمامي، وأمر ما فيها وأحر شيء كثير أريد أن أتعلمه ولم أفرغ له بعد.

وفي طليعة ذلك تعلم أبجديات اللغة الإنجليزية لعلي أتدرج في قراءة بعض المصادر ولا أجمد برهة حماسي بفراغ من عساه يمن علي بترجمة كليمه.

وفي جمهورية أفلاطون أو المدينة الفاضلة - وأعني سكن المدرسين بجامعة الملك سعود - كنت مدعواً لدى دكتور وقور صموت جم العلم، وقد حشد جميع دكاترة الجامعة ليغيظني بجهلي بلغة الخواجات، فلا يعلم

إلا الله إلى أي

فالأستاذ

الجنوب، والأ

تلقائيتها، والا

من كثرة الض

سأطوهم بيد

أجد نفسي بين

لكثرة ما يحصب

وإذا كنت

وأم تلك ال

ومن أكبر:

الكهولة من م

فإذا ضمم

ذائك أقرب المر

وأشد فراق

عليها ماتت و

وأربعون سنة:

للكويت والح

الناقة، وعلى ال

أكتب في أ

تعتمد على الق

فالفقه وع

إلا الله إلى أي حد زهدت في نفسي .

فالاستاذ الدكتور عبدالرحمن الأنصاري كأنه قروي من حاضرة الجنوب ، والاستاذ الدكتور أحمد الضبيب وفيه ملامح بادية الشمال بكل تلقائيتها ، والاستاذ الدكتور منصور الحازمي وقد كلت عيونه وعشي نظره من كثرة الضحك الذي ينتجه ولعه بالدعابة . . . هؤلاء وغيرهم قلت سأطويهم بيد أرحب من راحة الأم الرؤوم إن طارحوني في مشاربي فإذا بي أجد نفسي بينهم عامياً أُمياً ، أو درویشاً ضاعت مطارته - بتشديد الطاء - لكثرة ما يحصبونني به من نحو إنجليزي !! .

وإذا كنت لم أرث من طفولتي أدنى عقدة فإن كهولتي كلها عقد .

وأم تلك العقد جهلي الذريع بلغة الخواجات .

ومن أكبر نعمة لله على وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ما علمته منذ الكهولة من معارف شرعية .

فإذا ضمنت هذا العلم إلى سلامة البيئة التي عايشتها في طفولتي كان ذانك أقرب المراحل إلى نفسي .

وأشد فراقٍ وقعاً على قلبي كان فراق أبي رحمه الله ، لأن أُمي رحمة الله عليها ماتت وعمري أربعة عشر عاماً وأبي رحمه الله مات وعمري إحدى وأربعون سنة ، وهو أبي وصديقي وأستاذي سافرت معه قبل بلوغ الحلم للكويت والحجاز وأنحاء نجد وإلى مصر راجلين ، وعلى الحمار ، وعلى الناقة ، وعلى السيارة الحالية والأيف والمالك ، وعلى الطائرة .

أكتب في أكثر من مجال ، ولكن يجمع بين تلك المجالات أنها علوم تعتمد على القراءة والفكر والمعايشة في البيئة .

فالفقه وعلومه ، وكافة علوم الشريعة ، والفلسفة والمنطق والكلام ،

واللغة، والتاريخ والنسب . . . الخ كلها علوم تعمر بها المنتديات ويصغي لها الجمهور.

وهذا معنى كونها معايشة.

ولست أجدني دائماً أميل إلى مجال بعينه، ولكنني في فترة أميل إلى التاريخ، وفي أخرى أميل إلى اللغة وهكذا.

والعالم الكبير شاهده من صدره لا من كتابه.

وشاهده من صدره ليس قولاً يحفظه، ولكنه شيء حققه واجتهد فيه وعلل ودلل ورجح، فشاهده من تحقيقه لا من نقله.

والعالم الكبير لا يكون عالماً في باب أو مسائل، وإنما يكون متدرباً على جميع مسائل العلم الذي يعالجه، محققاً الاجتهاد في كل شوارده.

وهذا معنى أمنيته في الصغر أن أكون أحد العلماء الكبار.

وأنا الآن عالم في مسئلةات جاهل في مسائل . . . وكل طالب علم عالم فيما علم جاهل فيما جهل.

ولا أراني في حياة جادة بمعنى الكلمة، وإنما حاولت التقليل من صبوات أخشى أن يبقى عليّ وزرها.

والظاهري ليست موضوعة، ولا من باب خالف تعرف، ولا من باب التمهيد لفرد وإنما هي منهج وأصول التزم لها بعد حرية فكرية، وقضى بها ثوابت وإيجابيات فكرية وشرعية وحسية.

ويزول العجب إذا علمت أن الظاهرية لا تعني فهم العامة بأنها بمعنى السطحية أو الحرفية أو الواضح.

وإنما تعني جميع مضمون القضية.

فما لا يدل عليه اللفظ بوضوح أو خفاء ليس ظاهراً، وإنما هو تقوّل.

وما لا يدل
وهم أو تحكّم.

وطالب العدا

فمصدره الـ
ذا علم بصحيح

سأل أهل التخذ

وتلقى عنهم، فـ

ويتعلم مأخذهم

وإذا كان ذا

بالصحيح والد

والتضعيف، فـ

الحديث.

ولا أعرف

يحفظ الفتوى عـ

بضعة مصادر.

وأما الاجتهاد

ولا ينبغي تر

طلبتة وتيسرت،

بعلمهم وصلا-

يكون هذا لـ

هذا لعلماء الدو

وطالب العدا

لا يضر بجمع اـ

وما لا يدل عليه الفكر بيقين أو رجحان ليس ظاهراً وإنما هو احتمال أو وهم أو تحكّم.

وطالب العلم مطالب بالاجتهاد منذ كمال أهلية التكليف.

فمصدره الكتاب والسنة الصحيحة، ومطلبه مراد الله فيهما، وإذا كان ذا علم بصحيح الحديث وسقيمه ولكن يشكل عليه شيء من علم الدلالة سأل أهل التخصص في اللغة والبلاغة وأصول الفقه وبيان مأخذ الحكم وتلقى عنهم، فإن اختلفوا اجتهد في الترجيح بفكره وقراءته بعد أن يتفهم ويتعلم مأخذهم.

وإذا كان ذا اجتهاد في علوم الدلالة والاستنباط ولم يكن ذا علم بالصحيح والسقيم من الحديث سأل أهل التخصص في التصحيح والتضعيف، فإن اختلفوا اجتهد في الترجيح حسب أصول مصطلح الحديث.

ولا أعرف في هذا العصر مجتهداً كالشافعي ومالك، وإنما هناك من يحفظ الفتوى على مذهب إمامه، أو يحفظ الفتوى على ترجيحه السريع من بضعة مصادر.

وأما الاجتهاد الجزئي فممكّن في هذا العصر.

ولا ينبغي ترك أمور المسلمين لاجتهاد عالم بعينه وقد انتشر العلم وكثر طلبته وتيسرت وسائله، وإنما يترك أمر الاجتهاد لعدد من العلماء المتميزين بعلمهم وصلاتهم.

يكون هذا لعلماء الدولة المسلمة فيما يخص شؤون تلك الدولة، ويكون هذا لعلماء الدول الإسلامية فيما يعم المسلمين.

وطالب العلم إذا أداه اجتهاده وتحريره لمراد ربه إلى حكم في خاصة نفسه لا يضر بجمع الكلمة ففرض عليه أن يعمل باجتهاده في خاصة نفسه.

حسن الخاتمة

كنت تابعا أميناً لابن قيم الجوزية رحمه الله عندما كان يمنع من التجوز في الدعاء والاكتفاء بالمأثور.

ولكنني بعد الممارسة والطلب رأيت الدعاء تحملاً وأداءً.

فعند التحمل ينبغي أن لا نحفظ غير الأدعية المشروعة الصحيحة، وأن نبدأ (في الاستيعاب) بجمعها لخير الدنيا والآخرة.

ولكن المسلم يضطر لأداء الدعاء ولا يكون في ذاكرته شيء يليق بحالته، وقد لا يكون تحمل شيئاً أصلاً.

فهل نمنعه من طلب فيوض ربه وألطافه حتى يحفظ الدعاء ويتقن محفوظه ١٩؟

كلا . . . لقد انبهم الأمر على أمة الله وهي من عوام المسلمين فقالت: اللهم إني لقيتك سوادي وأنت تعلم ما في فؤادي !!

والمسلم يحزبه الأمر أحياناً فيفتح له في الدعاء فيستجاب له، ثم يستذكر دعاءه فيجده إلهاماً من ربه لم يرد مسنداً إلى الشرع بلفظه.

ووجدت أدعية صحيحة الإسناد لم يرفع ولكنها موقوفة على بعض الصحابة كدعاء عمر رضي الله عنه في القنوت.

إذن المسلم عند أداء الدعاء يؤدي الدعاء المأثور كما سمعه فإن عجز فليعبر عما في قلبه بعبارة هو وإن كانت عامة . . غاية ما هناك أن لا يتعدى

في الدعاء

أعلى منزلة

ولقد

المسجد و

قولي: «لا

الخاتمة».

احتجج

شبهة حمد

أحد المسج

عشر عاماً،

نفسه للمس

وفي آخر

وبأن يغتس

الصلاة، يا

وهكذا

وكان يه

يقدر على ال

وطلب ا

يرافقه بقية

للقبلة وظل

لبارئها.

وكان قبل

في الدعاء كأن يسأل محرماً أو خلاف مقتضى السنة الكونية أو أن يكون أعلى منزلة في الجنة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه !! .

ولقد أضعت ماثوري مرة فاستحدثت لنفسني دعاء كنت أردده في المسجد وفي المقبرة طيلة لحظات التأزم . . وذلك الدعاء المستحدث هو قولي : « اللهم اني أسألك حسن ذكرك في الحياة وعند الممات وأسألك حسن الخاتمة » .

احتجت لهذا الدعاء بعد نسيان ماثوري لأنني كنت في تشييع جنازة شبيهة حمد من العباد الأتقياء - هكذا أحسبه والله حسبه - وكان من جماعة أحد المسجدين الذين أصلي فيهما، وكان يعاني آلام السرطان أزيد من خمسة عشر عاماً، وكان يعلم ذلك فلم يزد إلا احتساباً ورضى بالقدر، وكان يحجر نفسه للمسجد في الحر والقر، وكان ذا كرم ورفد رغم قلة ذات يده .

وفي آخر ليلة من حياته نادى بتغيير سريره وفرشته، وبتغيير ملابسه، وبأن يغتسل ويطيب، فكان يصلي المغرب ويطيل وتسمع مناجاته بعد الصلاة، يارب أريد أن أصلي .

وهكذا فعل في صلاة العشاء .

وكان يهم بالخروج إلى البيت ويخبر من حوله بأنه شفي وعوفي - وهو لا يقدر على النهوض ! - .

وطلب السواك فتسوك وأطال السواك، وطلب من بعض أصهاره أن يرافقه بقية ليلته وعلل بأنه يخشى أن يرتاع ابنه الصغير المرافق له، وتوجه للقبلة وظل يذكر الله حتى نام فلما أقعد لصلاة الفجر وجد قد سلم الروح لبارئها .

وكان قبل نومه يشكر الله ويردد الشكر على أن قضى دينه .

وكان يردد إباحته لكل مخلوق .

الله أكبر ما أحلاها من ميتة رأى بعينه شفاءه من أكدار الدنيا، وختم حياته بالصلاة والدعاء والشكر والذكر والمسامحة ولقاء الله على طهارة .

إن مثل هذا من حسن الخاتمة التي ننشدها لذا أحدثت لنفسي هذا الدعاء تلقائياً إلى أن أجد في المأثور ما يقوم مقامه .

ومن أحداث حسن الخاتمة التي تتوثب لها الأرواح وتحقق لها القلوب ما حدثني إياه أخي الشيخ محفوظ الشنقيطي مدير عام العلاقات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف عن شيخ القراء بالمجمع الشيخ عامر السيد عثمان رحمه الله تعالى أنه فقد حباله الصوتية في السنوات السبع الأخيرة من حياته، وكان يدرس تلاميذه القراءة فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء .

ثم مرض مرض الوفاة وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفى ففوجئ أهل المستشفى بالرجل المريض فاقد الحبال الصوتية يقعد ويدندن بكلام الله بصوت جهوري جذاب مدة ثلاثة أيام ختم فيهن القراءة من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ثم أسلم الروح إلى بارئها .

قال أبو عبدالرحمن : وكان خال أبي وابن عم جدي عمر بن محمد العقيل رحمهم الله مؤذنا لمسجدنا الحسيني خمسة وثلاثين عاما أدركت منها ربع قرن لم يتخلف عن فرض واحد لحر أو قر، ومات في الرياض وعمره تسعون عاما وكان مقعداً فلما حضرته الوفاة بعد صحوة الموت وجده ابنه محمد واقفاً - بعد أن كان مقعداً - يصدق بجمل الأذان : الله أكبر . . إلخ .

وأهل الرقائق والوعظ يذكرون كثيراً من هجيري الشيوخ إذا خرّفوا، وأحسنهم هجيري من كان سلوكه حميدا، ونيته سليمة، ومعتقده محقق فإنه يلهج بما كان عليه من النور والضياء .

أسأل
عملاً ص
قال أ
التوحيد
ولو
السموات
وأهل
المنازل
قال أ
لأهل
لكانت
الحمد ك

أسأل الله لي ولكم حياة طيبة كريمة سعيدة، وعمراً مديداً، يكسب عملاً صالحاً، وحسن خاتمة تبلغنا بحبوحه رضوانه.

قال أبو عبد الرحمن : غاية الضائعين إذا رقت قلوبهم أن يتكلموا على التوحيد ويرجون الجنة فحسب والنجاة من النار.

ولو علموا أن الجنة جنات ودرجات، وبين كل درجة وأختها كما بين السموات والأرض لكان طموحهم إلى علو المنزلة.

وأهل المنازل الدنيا قصرت بهم أعمالهم فلا يستطيعون الصعود إلى المنازل العالية، وأهل المنازل العالية يهبطون إليهم ويزورونهم.

قال أبو عبد الرحمن : ذلك والله يوم التغابن حقاً، ولولا أن الله ضمن لأهل الجنة جميعهم ذهاب الحزن والغل، وضمن لهم الرضى والشكر لكانت منازل الجنة ذات تغابن لا تطيقها البنية البشرية والله المستعان وله الحمد كثيراً بدءاً وعوداً.. والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

رقم الصفحة	اسم الموضوع
٣	■ توطئة
١١	■ تباريح الطموح العلمي
١٣	■ تباريح القراءة والطلب والتأليف
٢٠	■ تباريح العلم والعمل
٢٧	■ تباريح العلم والكتب
٣٤	■ تباريح التراث العالمي
٤٠	■ تباريح شقراء
٦٠	■ تباريح التطلع إلى خارج شقراء
٦٤	■ التباريح في قطر
٧١	■ التباريح في الرياض
٩٧	■ تباريح الكهولة وذكريات النشأة
١١٧	■ تباريح جيل ١٩٥٢ م
١٢٣	■ تباريح الهوية
١٣٢	■ حسن الخاتمة
١٣٦	■ المحتويات

تم الفراغ منه بالمدينة النبوية المنورة ٢٩/١٠/١٤١١هـ، والحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين، وتم تصحيحه وإضافة آخر فقرة إليه في ٢٤/١٢/١٤١١هـ بالرياض بدارة داوود.

تم بحمد الله